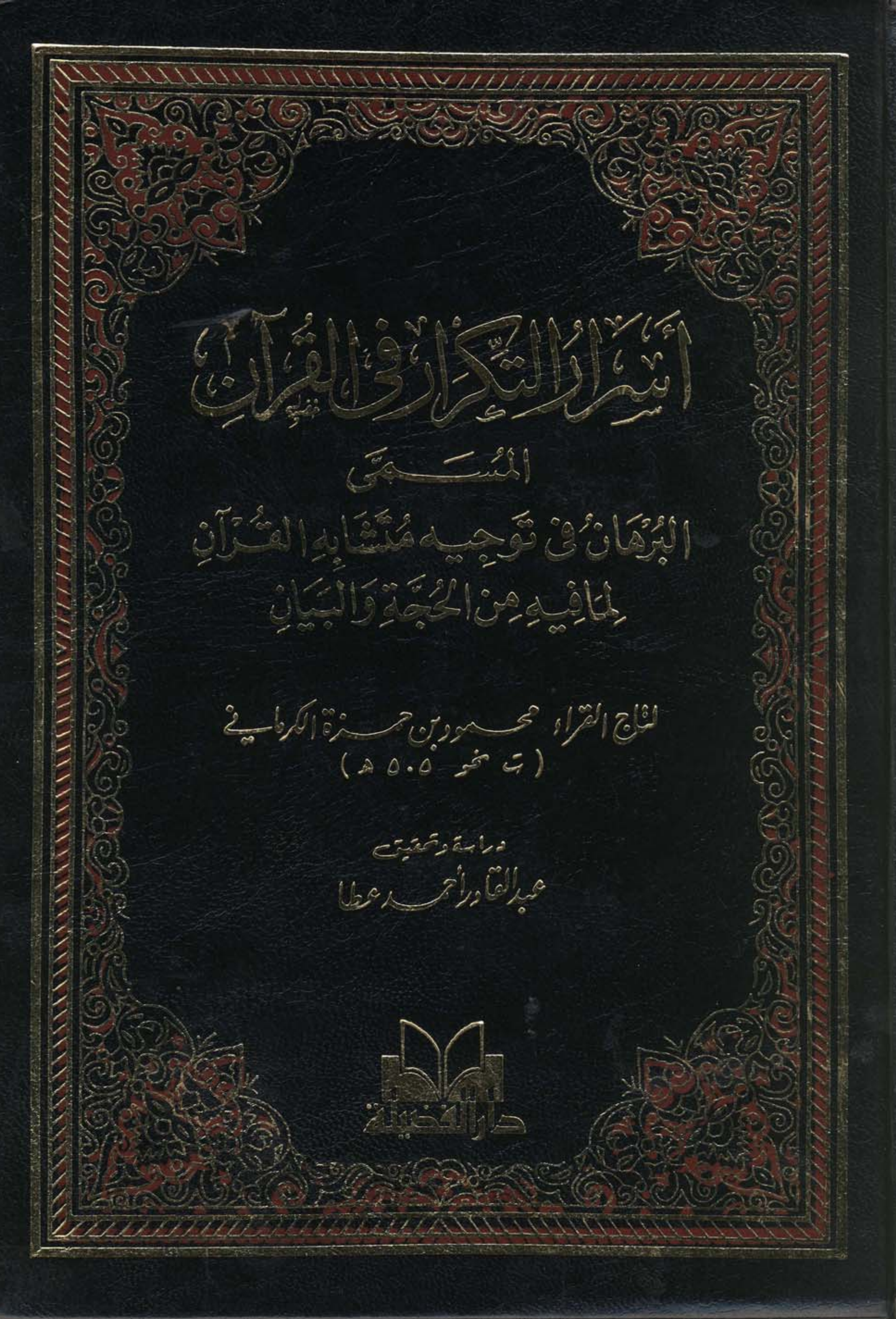

أسرار التكرار في القرآن
المسمى
البرهان في توجيه متشابه القرآن
لما فيه من الحجة والبيان
لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني
( ت نحو ٥٠٥ هـ )
دراسة وتحقيق
عبد القادر أحمد عطا
دار الفضيلة

# أسرار التكرار في القرآن

المسمى

## البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان

لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني
( ت نحو ٥٠٥ هـ )

دراسة وتحقيق
عبد القادر أحمد عطا

مراجعة وتعليق
أحمد عبد التواب عوض

دار الفضيلة


بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديم الكتاب

## القرآن والكتب السماوية :

لقد سمى اللّه تعالى كتابه الكريم بأسماء كلها تشير إلى عظمته وأهميته فى بناء شخصية الإنسان المسلم ، واستحكام أركان المجتمع الإسلامى المكلف بالزحف على الأرض لإعلاء راية القرآن .

لقد سمَّاه اللّه تعالى : نوراً ، وهدى ، وشفاء لما فى الصدور ، ومهيمناً على كل الكتب والشرائع ، ووصفه بأنه حق ، ومحكم الآيات ، وألْزَمَ العالم كله بالخضوع لأحكامه ، وَقَرَّرَ ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾[(١)] ، وتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، وكان له شأن بالغ فى الدعوة الإسلامية على عهد النبى ﷺ حتى فزع أساطين الفصاحة والبلاغة من كفار قريش حينما ظهرت فاعليته فى جذب عيونهم وسراتهم إلى دائرة الإسلام الحنيف ، فقالوا لأتباعهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[(٢)] .

من أجل هذا وغيره مما خص به أهل القرآن من فضل أهاب اللّه بالمسلمين أن يتدبروه فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾[(٣)] ؟ وأن يجعلوه مادة عبادتهم ومناجاتهم لبارئهم فقال : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾[(٤)] ، وقال : ﴿ وَرَتِّلِ

---

(١) سورة المائدة : ٤٤ .
(٢) سورة فصلت : ٢٦ .
(٣) سورة النساء : ٨٢ .
(٤) سورة المزمل : ٢٠ .

الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [1] ، وقال : ﴿ وقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ [2] .

وإذا حاولنا استجلاء عظمة القرآن وخلوده وشموله وعالميته ودلائل سلطانه وهيمنته على جميع الكتب والشرائع فى مختلف الأعصار والأزمان ، تبين لنا على ضوء الفهم الإنسانى القاصر عِدَّة دلائل نُـجْمِلُها فيما يلى :

أولًا : كانت المعجزات التى أَيَّدَ اللَّه بها رسله السابقين على رسالة النبى محمد ﷺ كلها مؤقتة بوقتها . وبحياة الرسل الذين جرت على أيديهم تلك المعجزات ، فلم تبق واحدة منها بعد وفاة صاحبها ، مما ينفى عنها صفة الشمول ويحدد فاعليتها بوقتها ، ومن ثم ينفى عن تلك الرسالات صفة الدوام هى الأخرى ، ويسلكها فى عداد الشرائع الممهدة لما بعدها ، والمنسوخة بالتالية لها ، لا يمارى فى هذا صاحب عقل سليم .

ثانياً : ومن ناحية الكيف لم تكن تلك المعجزات السابقة على الإسلام الذى جاء به النبى ﷺ وافية بحاجات الإنسان ، ولا مثيرة لمواهبه كلها ؛ فقد كانت معجزة موسى من جنس السحر الذى اعتقده قومه عاملًا من عوامل حمايتهم من الغوائل فى الأمور الشخصية والسياسية على السواء ، ولذلك كان سبب فزعهم : أن يخرجهم موسى من أرضهم بسحره ، ويذهب بطريقتهم المثلى التى اختاروها لإسباغ مظهر القوة والهيبة عليهم وعلى مملكتهم .

وأبطل موسى فِرْيَتَهُم فى اعتقادهم السحر حارساً للحدود السياسية ، ومصدراً من مصادر القوة الشخصية . وزودهم بأسفار وشرائع كانت صالحة لعصر موسى الذى بُعِثَ فيه

---

(١) سورة المزمل : ٤ .    (٢) سورة الإسراء : ٧٨ .

ومكانه وجنسه لا غيره ، وكانت العنصرية المتشددة التى عامل اليهود بها شريعة موسى ، واعتقادهم فى أنفسهم أنهم الشعب المختار ، والسور الشامخ الذى أحاطوا به أنفسهم بحيث لا يعترفون بمؤمن من غير عنصرهم دليلًا على صحة هذه النظرة .

وكانت معجزة المسيح من جنس الطب الذى يعنى بصحة الأجسام وحدها ، ولم يرثه فيها وارث من بعده ، لَا من حوارييه ولا من بنى إسرائيل فى أى مكان ، بل إنها توارت مع رفع المسيح ، وبطلت فاعليتها ، واستمسك بنو إسرائيل بعالم الوهم فأسبغوا على أحبارهم ورهبانهم خصائص اللَّه تعالى محاولين أن يتشبثوا بأذيال البقاء تحت لواء شريعة منسوخة ، ومن هنا فقدوا سمة الصيانة لوحى اللَّه عن أهواء النفس ، وشطط العقل ، فلم تعد شريعتهم صالحة لقيادة العالم ولا لإصلاح الخلل الـمُتَمَكِّنُ فى قلوبهم .

ثالثاً : اتجه القرآن الكريم إلى بناء شخصية جديدة لإنسان حضارة الإسلام تتميز بالعمل والفدائية والقوامة على الأجيال .

لم يكن القرآن معجزة تهيئ لأتباع محمد ﷺ أن يعملوا فى الدنيا على مقتضى الخوارق دون عمل إيجابى من جانبهم كما صنع اللَّه لنبيه موسى حين شق البحر له ولقومه ، وأغرق لهم عدوهم – فرعون وملأه – بل كان القرآن يعمل على بعث القوة المعنوية فى داخل الإنسان المسلم ، ويزود المجتمع بالتشريعات التى تجعل منه قوة لا يقهرها غالب من بنى الإنسان إن هو أحكم سلوكه على هداه . وأعلن اللَّه تعالى أنه لو شاء لانتصر للمسلمين من عدوهم : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾[1]. أى : أن الإسلام والقرآن جاءا ليؤكدا القيمة

(١) سورة محمد : ٤ .

العملية للبشر الموصول بحبل اللَّه المتين ، من حيث كان الإنسان المؤمن مسيراً بمحض الإرادة الإلهية فى الشرائع السابقة على الإسلام فى موضوع الجهاد فى سبيل اللَّه .

ولهذا لم يكن القرآن علاجاً للجسد فحسب ، بل كان حياة للنفوس وكاشفاً عن مواهب المؤمنين ، وسجلًّا جامعاً للشرائع النابعة من فطرة اللَّه فى الإنسان حيثما كان وأينما وُجِدَ ، ودام القرآن بعد النبى محمد ﷺ بنفس القوة والفاعلية والصيانة من العبث ، وغزا جوانب الفكر العالمى كله ، وخضعت له الهامات الشامخة متصاغرة أمام جلاله وعظمته وسيادته الروحية والفكرية جميعاً ، فكان شاملاً ، وكان باقياً ، وكان حياة للروح من حيث يبلى الجسد ، لا سيما وأن وعد اللَّه بحفظ القرآن من عبث الهوى وشطط العقل قد تحقق بطريقة منهجية عجيبة على يد أبى بكر ، إذ كَوَّنَ لجنة من كبار الحُفَّاظ حَقَّقَت النص المخطوط الذى دوَّنَه كُتَّابُ الوحى فى حياة الرسول ﷺ للقرآن ، ثم أعيد تحقيق المخطوطات القرآنية المتداولة فى الأمصار مرة أخرى على عهد عثمان ، واتفقت الكلمة على تدوينه بلهجة قريش ، وإلغاء ما دُوِّنَ منه بلهجات أخرى ، لئلا يختلف المسلمون فى المعانى لاختلاف اللهجة فى مستقبل الزمان البعيد .

رابعاً : ومن وجهة المنزلة الخاصة للأنبياء والتى تتبع رسالاتهم ومعجزاتهم فقد كانت منزلة النبى محمد ﷺ فوق كل المنازل . فلئن كان موسى كليماً فقد صعق حين تجلّى ربه للجبل ، وقرب اللَّه رسوله محمداً ﷺ للنجوى ليلة المعراج دون أن يصعق ، ولئن كان المسيح أحيا الأجساد فقد أحيا النبى ﷺ بالقرآن موات النفوس . وهدى حائر العقول ، ولئن سخر اللَّه الريح لسليمان فقد اخترق محمد ﷺ السبع الطباق ، ولئن

انشق البحر لموسى فقد عبر القرآن المحيطات ، واجتاز الوعر والسهل .

تلك عظمة القرآن ، وتلك مكانته العالمية التابعة لمكانته عند اللّه ، ومن ثم تكون مكانة العاملين على خدمته ، الدائبين على الكشف عن أسراره ودلائل إعجازه ، وكنوز عظمته ، فمن هذا الكشف يكون استمساك اتباع القرآن به ، ويكون إصرارهم على العمل بمقتضاه ، ويكون لهم من قوة الإيمان ما يؤهلهم للمهمة التى كلفهم اللّه تعالى به : أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس ، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر على المستوى المحلى والعالمى على السواء .

فالقرآن هو الذى بقى من الكتب السماوية منضبطاً فى صورته ، واضحاً فى معالمه ، غالباً كل الغلبة على محاولات التزييف فى الشكل أو المعنى رغم الجهود المضنية التى بذلت فى هذا السبيل ، أثيراً عند رسول اللّه ﷺ وأصحابه الذين أخذوه مأخذ الحفظ والعلم والعمل ، فأحاطوه بقلوبهم وجداناً ، وبعقولهم فهماً ودرساً ، وأقاموا على صراطه أنفسهم ، ودعوا الناس جميعاً إلى اللّه وإلى سبيل اللّه على بصيرة وعلم وهدى .

ولقد أراد اللّه تعالى أن يبقى القرآن وثيقاً كل الوثاقة فى نصوصه ، وسلوك الصحابة على صراطه ، لأنه منهاج دعوة ودستور حياة للفرد والدولة جميعاً . فهو منهاج دعوة من حيث نزوله على مدى عشرين عاماً من الزمان على مقتضى الظروف والأحوال التى يقتضيها بناء أمة قرآنية مجاهدة مظفرة ، ترتفع من حضيض الشرك والفوضى والإثم إلى قمة الإيمان والنظام وطهارة القلب واليد والجسد ، ولم يكن بناء هذه الأمة على هذه الصورة إلّا ثمرة للقدوة السلوكية والدعوة مجتمعين .

وذلك أن العبادة قد فرضت على الجميع بما فيها من فعل وترك لإبقاء الإيمان فى القلوب على درجة من القوة والفاعلية ترفع طلائع الإسلام إلى الدعوة بالقول والعمل . فالعبادة فى الحقيقة وسيلة تربية وإعداد وبناء لإنسان الحضارة القرآنية ، فمن أقام عليها دون أن يدعو إلى اللّه وإلى سبيله فمثله كمثل من أعد أرضاً للزرع ، وهيأها للإنتاج ، ثم نام على ثراها لا يفيد نفسه ولا غيره من ثمارها ، وهو انحراف عن السنن المشروع الذى علَّمه الرسول ﷺ لأصحابه فى صدر الدعوة ، ثم بدت نُذُرُ ( التقوقع ) والانزواء فى عصر التابعين وفى حياة المعمرين من الصحابة أنفسهم . ومن أمثلة ذلك ما روى الشعبى : « أن رجالًا خرجوا من الكوفة ، ونزلوا قريباً يتعبدون ، فبلغ ذلك عبد اللّه بن مسعود ، فأتاهم ، ففرحوا بمجيئه إليهم ، فقال لهم : ما حملكم على ما صنعتم ؟ فقالوا : أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد ، فقال عبد اللّه : لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم ، فمن كان يقاتل العدو ؟! وما أنا ببارح حتى ترجعوا » .

هذا هو فقه القرآن كما علمه ابن مسعود من تعاليم الرسول ﷺ ، ومن تجربة مماثلة حاول القيام بها عثمان بن مظعون الصحابى هو وجماعة من أصحابه فنهاهم الرسول ﷺ ، وأنار لهم طريق القرآن الحق .

لن يكون الإنسان المسلم التابع للقرآن عاملًا بأمر ربه إلَّا إذا عبده ، ودعا إليه وإلى دينه وكتابه . هكذا أرسل اللّه رسوله ﷺ ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾[1] ، وهكذا أثنى القرآن على الدعاة ﴿ وَمَن أَحسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾[2] ، بل إن الإمام الشاطبى لم يجعل من قاعدة فرض الكفاية فى

---

(١) سورة الأحزاب : ٤٦ .       (٢) سورة فصلت : ٣٣ .

الدعوة ذريعة إلى قعود الباقين عنها إذا أقامها البعض حين قال فى موافقاته : « القيام بذلك الفرض قيام بمصلحة عامة ، فهم مطالبون بسدها على الجملة ، فبعضهم قادر عليها مباشرة ، وذلك من كان أهلاً لها ، والباقون وإن لم يقدروا عليها قادرون على إقامة القادرين ، فمن كان قادراً على الولاية فهو مطلوب بإقامتها ، ومن لا يقدر عليها مطلوب بإقامة القادر وإجباره على القيام بها ، إذ لا يتوصل إلى القيام إلَّا بالإقامة ، من باب « ما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب » .

وإذا كانت تجزئة القرآن فى النزول على أكثر من عشرين عاماً كافية لدراسة منهج الدعوة القرآنية من خلال هذا المنهج النزولى لإنشاء أمة مؤمنة لم تكن مؤمنة من قبل ، فإن جمع القرآن فى المصحف على ترتيب آخر غير ترتيب النزول بأمر الوحى هو دستور حياة الأمة التى استجابت وآمنت بالفعل ، ومنهاج دعوة فى أوساط تلك الأمة التى قامت دعائمها بالفعل على أساس من الإسلام . ومن تأمل فى ترتيب النزول وترتيب المصحف أذهله العجب من تلك الدقة البالغة فى كلا المنهجين ، وهو الأمر الذى سوف نحاوله إن شاء اللَّه فى الدراسة المقدمة لكتاب ( أسرار ترتيب القرآن ) .

ولكن هذه الإشارة العابرة ، وما سوف نكتبه إن شاء الله ، ما هو إلَّا ضوء قليل على الطريق ، نرجو أن يواصله القادرون من المؤمنين ، ويتعهدوه بالدرس والبحث والنشر لخدمة القرآن الذى لم تكشف كل أسراره بعد .

## الدراسات القرآنية وأهميتها :

لقد أجاد الباحثون فى أرجاء القرآن فيما عدا الباحثين عن إعجازه فإنهم لم يصلوا إلى مقطع الصواب فى هذا المضمار .

لقد أجاد اللغويون بحث القرآن من وجوه العربية إجادة

ممثلة فى تفسير أبى السعود العمادى ، وأثير الدين أبى حيان ، وجار اللّه الزمخشرى ، وأجاد الباحثون فى الأحكام إجادة مُمَثَّلَةً فى تفسير القرطبى وشيخه ابن عطية ، والمتخصصون فى أحكام القرآن كابن العربى والجصاص والكيا الهراسى ( ولا زال كتابه مخطوطاً ) . وأجاد الباحثون فى أخبار القرآن وسننه النبوية ، وكان رائدهم فى هذا الباب ابن جرير الطبرى فى تفسيره وحيدر بن على القاشى فى المعتمد ( ولا زال مخطوطاً ) كما أسهم علماء الفلسفة والكلام فى فهم القرآن من وجهة نظرهم فهماً ممثلًا فى تفسير فخر الدين الرازى ، وأدلى الصوفية بدلائهم أيضاً ، فكان تفسير القشيرى وحقائق التفسير للسلمى . وروح البيان للشيخ إسماعيل حقى وإعجاز البيان للقونوى ، وتفسير النخجوانى .

وهكذا الشأن فى جميع العلوم والفنون ما عدا إعجاز القرآن . فإن العلماء قصَّروا فيه ، وإن كانوا قد بذلوا كل جهودهم للكشف عنه .

ولقد حاول أبو السعود العَمَّادى ، وأثير الدين أبو حيان ، وجار اللّه الزمخشرى الكشف عن بعض جوانب الإعجاز فى القرآن المناسبة لمن نزل عليهم القرآن من فصحاء العرب – إذ هم المقصودون أولًا بالإعجاز – فوُفِّقُوا فى حالات معدودة ، ثم تكلموا عن عظمة الأساليب القرآنية من وجوه غير وجوه الإعجاز فى باقيها ، وإنما من وجوه البلاغة التقليدية . ومع ذلك فإننا نرى بريقاً من نور الفهم لدى أبى السعود العمادى دون أن يطبقه على تفسيره كله وذلك حين يقول : « إن جميع المقالات المنقولة فى القرآن الكريم إنما تحكى بكيفيات واعتبارات لا يكاد يقدر على مراعاتها من تكلم بها حتماً ،

وإلّا لأمكن صدور الكلام المعجز عن البشر » .

فالدقة فى مراعاة تلك الكيفيات والاعتبارات بحيث لا يشذ منها اعتبار واحد ، ولا كيفية واحدة هو مقطع الحق فى مسألة الإعجاز دون مراء .

وتلك الاعتبارات والكيفيات قد تكون ذات جوانب مختلفة : أسلوبية وهى موسيقى اللغة ووقعها المتهادى على مناط الذوق من كل نفس ، فيكون منه حبور وارتياح لا نجد له نظيراً فى أسلوب آخر لا تراعى فيه تلك الكيفيات وقد تكون نفسيَّة تتصل بحركات النفس وانفعالاتها ، وقد تكون من باب التشريع والتقنين وغير ذلك من الاعتبارات ولكن المهم هو استقصاء القرآن لإثبات أنه أسلوب لم يشذ مرة واحدة عن مراعاة أدق الكيفيات والاعتبارات ، ومن هنا يخرج عن نطاق الكلام البشرى ، وذلك الكلام الذى لا يوجد منه أنموذج واحد فيه هنات من إغفال اعتبار ، أو إهمال كيفية .

وهذا المقياس من مقاييس الإعجاز هو المقياس الذى لا تختلف فيه الطوائف . فمقياس علم البيان مما تختلف فيه الأذواق ، ومقياس التشريع مما تختلف فيه الأجناس بالطواعية والعناد ، اللهم إلّا هذا المقياس الذى أشرنا إليه والذى يستبطن مقياس الموسيقى اللغوية ، فهو ما تتفق فيه الآراء ولا تقوى أعتى الطبائع عناداً على إنكاره وعدم الاستجابة لجمال البيان فى أطوائه .

لقد أنكر كفار مكة مميزات القرآن ، ولكن أثره فى الذوق هو الذى جعل الوليد يعلن على الملأ : « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمونق ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر » .

فهل كان إحساس الوليد هذا نابعاً من عظمة التشريع أو من جودة التشبيه أو نضرة الاستعارة ؟ لم يكن شيء من هذا هو مصدر إعجاب العرب ممثلاً فى الوليد ، بل هو الذوق الذى لا ينتشى إلَّا من مراعاة الملابسات والكيفيات والاعتبارات التى سنتحدث عنها عند الحديث عن كتاب البرهان أو أسرار التكرار فى القرآن « كما أطلقنا عليه » .

على أن هذا الباب ليس هو الباب الوحيد الذى يلوح منه إعجاز القرآن ، فهناك إعجاز الترتيب الذى يجده القارئ مفصلاً إن شاء اللّه فى الدراسة المقدمة لكتاب « أسرار ترتيب القرآن » للسيوطى ، وهناك إعجاز العقول البشرية كلها فى تاريخها الغابر واللاحق بصلاحية القرآن وحده للقيادة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى جميع البيئات ، وضلال الفكر الإنسانى المجرد فى هذا الصدد ، وهناك إعجاز القرآن من حيث هو الفطرة التى لا تتبدل ، والتى يقاس بها الفكر البشرى للتعرف على الخطأ والصواب ، إلى غير ذلك من نواحى الإعجاز التى يصعب حصرها فى هذه العجالة .

وإذا تفجرت القوة من مظنة الضعف كان ذلك أدخل فى باب الإعجاز ، وأعلا كعباً فى باب البلاغة والتحدى ، ولا نعلم مظنة للضعف أظهر من التكرار وهو الباب الذى حاوله الكرمانى تاج القراء فى « كتابه البرهان » فأجاد بحق وأفاد .

أقول : إن العصر بحمد اللّه عصر قد أقبل فيه الإيمان وأدبرت فلول إلحاد كانت قد تسللت كما تتسلل الجرذان بين الخرائب وأكداس القمامة لا يحلو لها إلَّا أن تسكن العفن من العقول وتستمكن إلَّا من دنس الطباع ، وقد أراد اللّه تعالى أن يتفجر نور الإيمان من جديد فى أرجاء أرض الإسلام ، ولكن

شبابنا لا زالوا فى حيرة بين نداءات الإيمان الرزينة العميقة ، وبين عويل تلك الفلول المندحرة من قنافذ الإلحاد وقد لجأت إلى استثارة الرحمة واصطناع خلائق اللؤم وتوسلات الضعف .

وكان لزاماً على كل مخلص لدينه ، مكين الإيمان برسوله وبكتابه المبين : أن يسهم بقبس من نور القرآن يشعله أعقاب تلك الفتنة المدمرة التى أرادت بالمسلمين السوء ، ليكون نورها قبس إيمان فى قلوب الشباب . وبصيرة يقين فى أفئدة الشيوخ ، ونار هلاك لتلك الطفيليات التافهة ، وهو الأمر الذى اعتزمته بحول اللّه وقوته فى مجموعة من الدراسات القرآنية الواعية أبدأها بكتاب البرهان ، وأثنيها إن شاء اللّه بكتاب « تناسق الدرر » لجلال الدين السيوطى ، وبما شاء اللّه مما نعثر عليه بين خزائن المخطوطات .

## تاج القراء الكرمانى وكتابه « البرهان » :

الكرمانى هذا ليس هو الكرمانى شارح صحيح البخارى ، وإنما هو تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر أبو القاسم برهان الدين الكرمانى ، ولم يترجم له سوى ياقوت فى معجم الأدباء ( ١٢٥/١٩ ) وقال عنه : أحد العلماء الفهماء النبلاء ، صاحب التصانيف والفضل ، كان عجباً فى دقة الفهم وحسن الاستنباط ، لم يفارق وطنه ولم يرحل ، وكان فى حدود الخمسمائة ، وتوفى بعدها ، صنف لباب التفسير وعجائب التأويل ( وقد أشار إليه السيوطى ناقلاً عنه رأياً فى تناسق توالى الحواميم وذلك فى كتابه تناسق الدرر ) ، والإعجاز فى النحو ، والنظامى فى النحو ، والإشارة والعنوان فى النحو ، وغير ذلك : ثم ساق له نموذجاً من شعره فى النحو على غرار ألفية ابن مالك .

وقد نقل هـذه الترجمة بحروفها صاحب بغية الوعاة ، وأنباء الرواة ، والجزرى فى طبقات القراء والذهبى فى طبقات القراء أيضاً ، والداوودى فى طبقات المفسرين وشيخه السيوطى فى طبقات المفسرين أيضاً ، ولم يزيدوا عليها شيئاً ، وهو مظهر غريب بالنسبة لرجـل له مؤلفات فى النحو والتفسير ، وله مشاركة فى علوم أخرى تبدو من كتابه « البرهان » .

ويبـدو أن ملازمته لوطنه « كرمان » وعدم رحلته فى طلب العلم لم يدع له شهرة بين مؤلفى الطبقات حتى جهلت سنة ميلاده وسنة وفاته ، وكل ما عرف عن حياته أنه كان فى حدود الخمسمائة وتوفى بعدها ( وأرخ الزركلى صاحب الأعلام تاريخ وفاته نحو ٥٠٥ هـ الموافق ١١١٠م ) [1]، ولا نجد فى كتابه إشارة إلى شيخ من شيوخه يمكن استنباط عمره منها ، والظاهر أنه كان عصاميًا فى العـلم ، تتلمذ على ما وصـله من الكتب ، واعتمد على ذكائه الذى وصفه ياقوت بأنه كان عجباً ، فربما لقيه ياقوت وربما لم يلقه ، ولكن مؤلفاته تنم حقًّا عن ذكائه .

والمؤكد أن تاج القراء كان يعيش فى آخر القرن الخامس وأول السادس ، وإن كنا نرجح أنه عاش فى النصف الثانى من القرن السادس .

وهو زمن كانت قد تدهورت فيه دولة بنى العباس ، فلم يبق لها إلَّا صـورة هزيلة احتوتها الخلافة الفاطمية بمصر والشام والمغرب ، وكان هناك فى ذلك الزمان نشاط واسع النطاق للقرامطة والمغول والباطنية وغيرهم من أرباب النحل الهـدامة ، وكان استمساك هذا الرجل بتقاليد الدراسة الإسلامية الخالية من الانحراف ، والتى تهدف إلى البناء بين معاول الهدم دليلاً

---

(١) من إضافات المراجع .

على سلامة عقيدته وقوته فى دينه ، واستقامة سبيله .

وقد نقل قليلًا من مسائل كتابه عن أبى مسلم محمد بن على بن الحسين بن مهرايزد النحوى الأصبهانى الأديب الذى ألف تفسيراً فى عشرين مجلداً ، والذى نقله بدوره عن الخطيب الإسكافى وكان له تفسير فى مجلد يبحث فى نفس الموضوع ، ولكن الكرمانى لم يقف عليه إلَّا من خلال أبى مسلم . وتفسير أبى مسلم مع تفسير الكرمانى الذى سماه « لباب التفسير وعجائب التأويل » ( المخطوط فى شستر بتى تحت رقم (٤١٤٧) وطبع تحت عنوان : « العجائب والغرائب » فى عشر مجلدات )[١] كما نقل رأياً واحداً لنحوى آخر فى التفسير هو قاسم بن حبيب ، ومعلوماتنا عنه قليلة جدًّا ، إذا لم يترجم له إلا فى أنباء الرواة فى سطر واحد ، ونقل رأياً أخر لعلى بن عيسى الرمانى النحوى المعروف ، وهذا كل ما ذكره عن العلماء الذين استفاد منهم فى كتابه هذا ... ورغم أن مسائله عن غيره لا تعدو بضع مسائل فقد عقب عليها برأيه الشخصى ولم يكتف بها ، ولم يقف على كتاب أبى جعفر بن الزبير فى الموضوع ، والذى توجد منه نسخة خطية بمعهد إحياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة .

( وإحقاقاً للحق فإن هذا الرجل محمود بن حمزة الكرمانى عالم جليل بالقراءات ، ولكنه نقل فى التفسير آراء مستنكرة ، فى معرض التحذير منها كان الأولى إهمالها ، وذلك فى كتابه « لباب التفسير » وهو الكتاب المعروف بـ « العجائب والغرائب » قال السيوطى عن هذه الآراء : « لا يحل الاعتماد عليها ولا ذكرها إلَّا للتحذير منها » [٢] من ذلك أنه نقل قول

---

(١) حيث إن المحقق ذكر أن الكتاب مفقود ولم يجده ولكن إحقاقاً للعلم أثبتنا أنه منشور ( المراجع ) .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن ، السيوطى ٢/٢٢١ .

« أبى مسلم » فى « حمٓ عسٓقٓ » : إن ، الحاء حرب على ومعاوية . والميم : ولاية المروانية ، والعين : ولاية العباسية ، والسين : ولاية السفيانية ، والقاف : قدرة مهدى .

وقال الكرمانى مُعَقِّباً على ذلك : « أردت بذلك أن يُعلم أن فيمن يدَّعى العلم حمقى » !

ومن هذه الآراء المستنكرة نقله قول من قال فى « الٓمٓ » : « معنى ألف : ألف اللّه محمداً فبعثه نبيًّا ، ومعنى لام : لامه الجاحدون وأنكروه ، ومعنى ميم : الجاحدون المنكرون ، من الموم ، وهو البرسام [١] » ، وثمة ترهات أخرى فى تفسير نقل السيوطى بعضها ، ونقل طاشكبرى [٢] بعضاً آخر ، واستنكرا إيراده لها )[٣] .

## كتب للمؤلف « محمود بن حمزة الكرمانى »[٤]:

١ - لباب التفسير وعجائب التأويل « مخطوط » فى شستر بتى برقم ٤١٤٧ وهو المعروف بكتاب « العجائب والغرائب » فى عشر مجلدات .

٢ - خط المصاحف .

٣ - لباب التأويل .

٤ - البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان « وهو الكتاب الذى بين يديك الآن » بعنوان : (أسرار التكرار فى القرآن ) .

---

(١) البرسام : ذات الجنب ، وهو التهاب فى الغشاء المحيط بالرئة .

(٢) مفتاح السعادة ، طاشكبرى زاده ٤٢١/١ .

(٣) هذه الفِقرات من إضافات المراجع بداية من قوله : وإحقاقاً للحق . وذلك لإعلام القارئ بما فى الكتاب ( المراجع ) .

(٤) هذا العنوان وما تحته من إضافات المراجع ( المراجع ) .

٥ – شرح اللَّمع لابن جنى .

٦ – اختصار اللمع لابن جنى .

٧ – « الإيجاز » مختصر الإيضاح للفارسى .

## قيمـة الكتاب :

ذكر السيوطى كتاب البرهان فى كتابه الإتقان ، واستدل بما فيه على أن القرآن بترتيبه فى المصحف هو بترتيبه فى اللوح المحفوظ ، وساق بعض أدلة الكرمانى على هذا القول .

كما أن أحد العلماء المتأخرين وهو على بن عطية الأجهورى المصرى وقع على الكتاب فاستبطنه فى كتاب « إرشاد الرحمن فى أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمتشابه وتجويد القرآن » إذ أنه اختار من كل فن من فنون كتابه كتاباً نجمه على سور القرآن ، فساق فى كل سورة منه جزءًا من الكتاب الذى اختاره ، ولكنه أجل كتاب التجويد للبقرى ، فساقه مجموعاً فى آخر كتابه الذى لا زال مخطوطاً ، وقد اقتبسه العلامة الشيخ زكريا الأنصارى وضَمَّ إليه مقتطفات من الأنموذج الجليل فى غرائب التنزيل للرازى وجمعها فى كتاب سماه : « فتح الرحمن » . وكلها لا زالت مخطوطة ، وقد ذكره أيضاً أحد علماء الحنابلة الذين عاشوا فى مصر هو مرعى بن يوسف الحنبلى ، ونقل عن كتابه هذا رأيه فى الفرق بين العلم والفقه والعالم والفقيه ، وذلك فى كتابه المخطوط « تنوير بصائر المقلدين بمناقب الأئمة المجتهدين » .

فالكتاب معروف إذن بين العلماء القدامى ، ولكنه لم يتداول فى عصرنا ولم تنهض إليه يد لإخراجه لسبب واحد فيما نرى ، هو العنوان الذى اختاره للكتاب ، إذ سماه :

« البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان » فأغمض المشتغلون بالنشر عنه عيونهم إذ ظنوه فى المتشابه بمعنى : الموهم ، أو الغامض ، ولم يفطنوا إلى أنه فى المتشابه بمعنى : المتماثل ، وهو مكررات القرآن كما أوضح مؤلفه فى مقدمته .

وقبل أن أعتزم إخراج الكتاب إلى النور راجعت كثيراً من كتب التفسير التى عنيت بالمقارنة والبحث كإرشاد العقل السليم لأبى السعود ، والكشاف للزمخشرى ، والبحر المحيط لأبى حيان ، والدر اللقيط لتلميذه ، وتفسير القرطبى ، وتفسير الخازن ، ومتشابه القرآن للقاضى عبد الجبار ، والعقد الجميل لأكاه باشا وغيرها خشية أن يكون الكرمانى قد نقل مسألة من هنا ومسألة من هناك ولفق من نقوله كتاباً كما يفعل الكثيرون ، فلم أجد ما يشير إلى هذا الظن من قريب أو من بعيد .

لقد وجدت أن بعض المفسرين كأبى السعود وأبى حيان تعرضوا فى قليل من المواضع للحديث عن المكرر ، ولكنهم عالجوه بمنهج آخر غير الذى لجأ إليه الكرمانى ، وإن كان فى قليل منها تفوق على تعليلات الكرمانى ، وقد أشرت إلى هذه الآراء فى هوامش الكتاب .

وقد تأكد لدى أن الكرمانى مستقل بكتابه ، معول على فكره واستنباطه هو ، صادق فيما قال فى مقدمته من : أن الأئمة قد اقتصروا على تصنيف المكررات ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها ، والفرق بين الآية ومثلها هو المشكل الذى لا يقوم بأعبائه إلَّا من وفقه اللَّه لأدائه .

ولا نعلم إلى الآن كتاباً مطبوعاً عالج هذا الباب من الدراسة القرآنية مستقصياً ومستقلًّا ، إلَّا كتاب الإسكافى « درة

التنزيل ، وغرة التأويل » وقد أطال القول فيه ، وغمض مقصده ، وأغفل كثيراً من مواضيع التكرار ، وإلَّا « درة التنزيل » للرازى وهو مطبوع بمصر مختصراً غير واف بالغرض ، وإلَّا متفرقات هنا وهناك فى بطون الكتب ، أو جانب واحد من جوانب التكرار الكلى كالقصص ، أما جزئيات التكرار واستقصائها فى القرآن على الوجه الذى سلكه الكرمانى فى البرهان من الإيجاز والوضوح فلا نجده ، ولذلك يعتبر هذا الكتاب هو الأول من نوعه وبابه فى المكتبة الإسلامية ، وتلك أولى دلائل أهميته .

## منهج الكتاب [1] :

لقد حدد الكرمانى منهجه فى كتابه حين قال :

« هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التى تكررت فى القرآن وألفاظها متفقة ، لكن وقع فى بعضها زيادة أو نقصان ، أو تقديم أو تأخير ، أو إبدال حرف مكان حرف ، أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيتين أو الآيات التى تكررت من غير زيادة ولا نقصان ، وأبين ما السبب فى تكرارها ، والفائدة فى إعادتها ، وما الموجب للزيادة والنقصان ، والتقديم والتأخير والإبدال ، وما الحكمة فى تخصيص الآية بذلك دون الأخرى ، وهل كان يصلح ما فى هذه السورة مكان ما فى السورة التى تشاكلها أم لا ؟ ليجرى ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها وتمتاز بها عن إشكالها .

فقد يرد فى القرآن كثيراً أمثال قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ – ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ – ﴿ إِلَيهِ مَرجِعكُم – إِلَى اللَّهِ مَرجِعُكُم ﴾ –

---

(١) العنوان من عندنا للتوضيح ( المراجع ) .

﴿ كَذَلِك يطبع اللَّه ﴾ - كَذَلكَ نَطْبَع - ... إلى أمثال ذلك » .

ولقد بلغت هذه المكررات قمة الإعجاز ، بحيث يمكن اعتبارها من علامات التنبيه على الإعجاز الذى لا يدرك إِلَّا بعمق الفهم والفقه والتذكر فى كل سورة من سور القرآن ، حتى يدرك الإنسان المستوى الواجب من يقظة العقل والتدبر حين يقرأ القرآن ، إما لاكتشاف آفاق أخرى من آفاق إعجازه التى لا تنتهى ، وأما ما أدركه الأولون واستيعابه ، حتى تؤتى القراءة ثمارها من ذلك الكتاب المبارك المبين ، وتلك هى الأهمية الأخرى للكتاب .

ولقد نَبَّهَ الكرمانى على بعض مسائله بأنها براهين لإعجاز القرآن ، ومنها قوله تعالَى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ ومُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ﴾[١] فى سورة الأنعام ، وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ﴾ فى سورتى الروم [٢] ويونس [٣] .

وما ذلك إِلَّا لأن ما فى الأنعام وقع بين أسماء الفاعلين وهو ﴿ فَالقُ الحبِّ والنَّوى - فالقُ الإِصبَاح ﴾ واسم الفاعل يشبه الاسم من وجه ، فيدخله الألف واللام والتنوين والجر وغير ذلك ، ويشبه الفعل من وجه فيعمل ، ولا يثنى ولا يجمع إذا عمل ولهذا جاز العطف عليه بالفعل نحو قوله : ﴿ إِنَّ الْمُصدِّقِينَ ... وَأَقْرَضُوا ﴾ وبالاسم نحو قوله : ﴿ أَدَعَوْتُمُوهُم أَم أَنتُم صَامِتُونَ ﴾ .

فلهذا وقع بينهما ﴿ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ بلفظ الفعل و ﴿ مُخْرِجُ الْحَىِّ ﴾ بلفظ الاسم عملاً بالشبهين ، وأَخَّر لفظ الاسم لأن الواقع بعده اسمان والمتقدم اسم واحد بخلاف

---

(١) سورة الأنعام : ٩٥ .
(٢) سورة الروم : ١٩ .
(٣) سورة يونس : ٣١ .

ما في سورتي الروم ويونس ، لأن ما قبله وما بعده أفعال ، فتأمل فيه فإنه من معجزات القرآن .

وبمثل هذا الوعى العميق سار الكرمانى فى كتابه مِمَّا يجعله أوفى كتاب بحث إعجاز الأسلوب القرآنى ، إذ درج المؤلفون على تلمسه فى كلمة أو تعبير مفرد مقطوع عما قبله وما بعده ، أما استيعاب الأسلوب والنظر إلى القرآن فى وِحْدَةٍ متكاملة فهو الجديد فى هذا الكتاب ، وما ذلك إلَّا لأن هذه الملاحظة تعطينا الفهم الحقيقى لحكمة منزل القرآن سبحانه وتعالى فى رعاية كل الاعتبارات والهيئات مما لا يتسنى لبشر على الإطلاق .

## منهج التحقيق :

يوجد من الكتاب أربع نسخ خطية أرقامها ١٥٦ ، ١٤٩ ، ١١٧ مجاميع ، ١٢١ علوم قرآن بالمكتبة الأزهرية منها نسختان أختان لأن رقم ١٤٩ منسوخة من رقم ١١٧ نظراً لما أصاب الثانية من الأرضة ، والثانية رقم ١٥٦ حديثة الكتابة مشوهة الخط يبدو أن ناسخها لم يكن له دراية بالعلم فَحَرَّف جُلَّها ، وأفسد معانيها ، ولذلك اعتمدنا على النسختين رقم ١٤٩ ، ١٢١ وقمنا بالعمل على الوجه التالى :

١ – نسخ النسخة الأم ١٤٩ والاستعانة بالثانية وإثبات الفروق .

٢ – أحياناً كانت تجمع النسختان على خطأ فكنا نحاول إصلاحه من السياق وقد نَبَّهْتُ على ذلك فى الهامش .

٣ – مراجعة جميع الآيات القرآنية الواردة فى الأصول ، إذ أن فيها تحريفاً واضحاً ، فَصَحَّحْنَاهَا وأثبتنا أرقامها .

٤– إرجاع المسائل إلى أصولها من الكتب المعتمدة

والتأكد منها لا سيما القراءات والأخبار ما وجدت إلى ذلك السبيل .

٥ - تخريج الأخبار والأحاديث والتعريف بالأعلام الواردة فى الكتاب .

٦ - أضفت كلمات أحياناً إما فى آيات القرآن متى ذكرها المؤلف مبتورة ، وإما فى صلب كلامه لتوضيح المعنى وجعلتها بين علامتين هكذا [ ] .

٧ - قمت بترقيم الآيات التى تعرض لها المؤلف بالبحث حتى يسهل الرجوع إليها .

٨ - قمت بعمل الفهارس التى تسهل البحث فى الكتاب فهرساً للآيات القرآنية ، وفهرساً للأعلام، والفرق ، والأحاديث ، وأقوال الصحابة ، والأمثال ، والأشعار[1] .

٩ - ما سقط من إحدى النسخ نبهت عليه بوضعه بين ( ) ولم أثبت من الفروق ما كان قليل القيمة كالنقط وغيرها ، فأصبحت النسخ الأصلية مستندات من التراث كما هى ، ولكنى أثبت الصحيح فى الصلب وأنزلت غيره إلى الهوامش .

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه وأن ينفع به المسلمين ، وأن يكون بداية لحلقة من دراسات القرآن ينسخ على نهجها أهل الغيرة على كتاب الله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وتابعيه ... إنه سميع قريب .

القاهرة

عبد القادر أحمد عطا

* * *

---

(١) هذه الفهارس من إضافات المراجع (أحمد عبد التواب) .

# دِراسة
# فِي إعجَازِ القرآنِ

# ماهو الإعجاز وما مقاصده ؟

## القــرآن بيــان ومعجزة :

**المعجزة :** أمرٌ خارق للعادة . مقرون بالتحدى ، سالم عن المعارضة .. فخرق العادة يعنى جريانه على غير ما ألف الناس .. والاقتران بالتحدى يقصرها على الرسل المبلغين عن الله ، إذ هو وحده الذى يملك قطع حجة الجاحدين والسلامة من المعارضة تعزل الشعوذة التى تبدو فى ظاهرها خرقاً للعادة .

وقد اقتضت سنة الله فى خلقه أن يؤيد رسله بالآيات التى هى المعجزات بالمعنى الاصطلاحى فى مواجهة تحديات الجاحدين الذين ينكرون رسالات الله عناداً واستكباراً ، تحت سلطان الترف وتسفل الإدراك من جهة ، ومن جهة أخرى لإمداد المؤمنين على مدى الزمن بطاقات من قوة اليقين ، ونور البصيرة ، وثبات القلوب فى مواجهة التحديات المادية الهائلة التى يهاجم بها المعاندون المؤمنين فى ميدان الفكر وفى ميدان الحرب على السواء .

وذلك أننا استقصينا التاريخ الدينى كله فما وجدنا الجاحدين إلَّا المترفين المستكبرين الذين لصقوا بالتراب : وأعماهم الهوى عن الخضوع للحجة والبيان . ولا يستبعد أن يكون قد وقر فى قلوب هؤلاء الجاحدين المعاندين وميض من الاقتناع بصحة ما جاء به الرسل ، ولكنهم فى سبيل الشهوات التى أحاطت بهم من كل جهاتهم ، وغلَّفت كل مشاعرهم فأطاحت بإنسانيتهم ، جهروا بالنكران ، واصطنعوا له الحجة الساقطة ، تماماً كما هو حادث الآن فى أوساط الشيوعية اليهودية التى تهدد العالم بالدمار فى سبيل إقامة المادية الإلحادية : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ**

**إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِـمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾** [1] ، والملأ الذين استكبروا والذين أترفوا ، هم أئمـة العناد ، ودعاة الجحود والكفر فى كل ملة إلهية كما بيَّن ذلك القرآن الكريم .

لم يكن البيان والوضوح فى تبليغ الدعوة إذن كافياً لقطع الحجة الكافرة ، وإقناع أنواع المدعوين إلى الشرائع على اختلاف أفهامهم ومداركهم وميولهم وشواكلهم ، بل إن البيان الواضح كاف لإقناع من رق حجاب الشهوة عن قلبه وبصيرته ، واستعلى عقله على هدى نفسه دون سواه من غلاظ القلوب والرقاب .. أما هؤلاء الغلاظ فلم يستجيبوا للبيان ، ولم يتخاذلوا أمام الوعيد بالهلاك فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولم تلن قلوبهم أمام دلائل الصدق الواضحة فى شخصيات رسل الله ، فراحوا يطالبون رسلهم بآيات ودلائل تدل على أنهم صادقون فى البلاغ عن إله غير منظور ولا مدرك بالحواس ، ولن تكون المطالبة بتلك الدلائل إلَّا نوعاً من التحدى الموجه للرسل أن يثبتوا للكفرة أن هناك شيئاً وراء الحواس ، أو ءانوناً علميًّا يعمل فى الكون غير القوانين التى ألفوها من خـلال السبب والنتيجة فى عـالم المحسـوس المادى الذى يمـارسونه فى حياتهم .

وكانت ناقة صالح ، وعصا موسى وبقية آياته التسع ، وإحياء الموتى على يد عيسى ــ عليهم الصلاة والسلام ــ آيات مؤيدات لبيان اللسان وحجة العقل ، وتحدياً لأهل العناد بأن قوة عظمى تحكم الكون غير قوة المادة ، وبأن قانون السبب والنتيجة المحسوس والمألوف ليس إلَّا أدنى مراتب السبب والنتيجة ظهوراً للإنسان فى عالمه المادى الذى أمر أن يمارسه على هدى من الإيمان المطلق ، حتى يستقيم العمران ، وتتحقق خلافة الإنسان لربه الأعلى .

ولما لم تجد تلك الآيات والدلائل الواضحة على سلطان الله تعالى

---

(١) سورة سبأ : ٣٤ .

وملكه المطلق للكون فى هداية هؤلاء المعاندين كانت مرحلة أخرى من مراحل الدعوة هى الوعيد بالخراب والدمار وتدمير الحضارة القائمة حينما أضربوا صفحاً عن الوعيد بالهلاك فى الآخرة .. وقد حدث ذلك بالفعل فى تاريخ الديانات ، فكانت وسائل العمران هى بعينها وسائل الدمار والخراب .. فالماء الذى جعله الله سبباً للحياة والنماء كان طوفاناً أغرق قوم نوح ، والرياح اللواقح المنظمة لوسيلة الرخاء من السحاب والمطر كانت عقيماً ، ما تذر من شيء أتت عليه فى قوم هود ( عاد ) إلَّا جعلته رميماً ، وتركتهم ﴿ صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [1] . وكان ميزان الجاذبية ، والوزن الحق لانسياب الكهربية اللذان قدرهما الله تقديراً يحفظ على الناس منافعهم ، هما سبب الدمار ممثلًا فى الصيحة ، والرجفة ، والخسف إلى غير ذلك مما لا تنكره وقائع التاريخ ، وما هو مسطور فى الكتاب المبين .

ولم يسفر ضياء الرسالة المحمدية الخاتمة إلَّا والتراث الدينى مسطور فى الكتاب الكريم بأفصح بيان وأوضحه ، بحيث لا يعجز عن إدراكه أقل الناس فهماً ووعياً ، داعياً إلى أن : الكون غيب وشهادة ، الله حاكم على الغيب والشهادة ، قادر على تدمير كل مشهود ومحسوس كما هو قادر على بركته ونمائه وازدهاره إذا كان هناك قبس من النور فى قلوب الناس يرقى بهم على التدبر والتأمل إلى الإيمان بكل مغيب عن المدارك من حقائق الوجود ، وبالله حاكماً رحيماً بالمؤمنين ، قاهراً للجاحدين .. وكانت كلمة قد سبقت من الله تعالى بألَّا يكون خسف ولا رجف ولا مسخ ، حتى تتحقق عالمية الرسالة على مدى الزمان على نور هذا البيان القرآنى الذى لم يفتر عن لفت الأنظار إلى التواريخ السابقة ، وإلى الأمم ذات القوى الهائلة ، وكيف انتهى بها العناد إلى الدمار والهلاك هنا فى الدنيا قبل الآخرة .

---

(١) سورة الحاقة : ٧ .

« لَا إِلَٰه إِلَّا الله » ، هـذه الكلمة هى خلاصة رسالات الله ، محمد وجميع الرسل عباد الله . هذا هو الحجم الأصيل للمبلغين عن الله فى كل ملة ، فلا كهنوت ، ولا احتكار للدين باسم الوساطة ، ولا سحر ولا شعوذة فى الدين وهى الأصول التى تدور حولها حقائق القرآن ، لتثبيتها فى القلوب ، ولإمدادها بطاقة من القوة واليقين عن طريق التشريع بالأمر والنهى

فماذا كان موقف العرب وهم أئمة الفصاحة والبلاغة من هذه الحقائق الواضحة باللسان البليغ المبين ؟

كان هذا البيان هدى لمن رقت حجب الغفلة عن قلوبهم فآمنوا ، وكفر الكثيرون وعاندوا وهم أرباب القلوب الغليظة المعتمة ، وبدأت سلسلة من التحديات وطلبوا آية ربانية ، أى معجزة بالمعنى الاصطلاحى تدل على صدق الرسول ﷺ فى دعواه . وأعلن الله تعالى أن آية محمد ﷺ ومعجزته لأهل العناد ما هى إلَّا الكتاب المبين حيث يقول : ﴿ **وَقَالُواْ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيكَ الْكِتَابَ يُتلَى عَلَيهِم** ﴾[1] . أى : أنه قائم مقام المعجزات المادية التى أيد الله بها رسله السابقين . وكان هذا البيان القرآنى حينما طلبوا تلك الآيات صراحة كما فى هذه الآية وحين قالوا : ﴿ **فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ** ﴾[2] .

القرآن إذن آية الله لرسوله ﷺ بالمعنى اللغوى والاصطلاحى لكلمة (آية ) فهو البيان الواضح الجلى يدركه كل المخاطبين ، وهو فى الوقت نفسه معجزة بيانية عظمى يمنح المعتدين مزيداً من النور ، ويتحدى المعاندين أن يعارضوه بمثله ، كما تحدى موسى سحر قومه بعصاه وعيسى طب عصره بإحياء الموتى ، وآمن الكثير حينما تأملوا وتدبروا وعاينوا المعجزة بالقلوب .. فالإعجاز على أى حال هو وسيلة إيمان ، ووسيلة

---

(١) سورة العنكبوت : ٥٠ - ٥١ . (٢) سورة الأنبياء : ٥ .

ضلال ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾[1] .

من هنا كان وجه من وجوه عظمة القرآن ، هو : أن يجمع بين البيان والإعجاز ، فلا تكون الآية الدالة على صدق الرسول ﷺ منفصلة عن البيان كما كان ذلك فى رسالة موسى وعيسى ، إذ كانت آيات موسى التسع ، وإحياء المسيح للموتى شيئاً منفصلًا تماماً عن صلب التوراة والإنجيل .. أما القرآن فلمَّا كان مصدقاً للتوراة والإنجيل ومهيمناً عليهما ، وجامعاً لحقائقهما ، فقد اجتمع فى صلبه البلاغ المبين ، والإعجاز القائم مدى الدهر ، وما ذاك إلَّا لأنه كتاب لم ينزل لهداية العرب خاصة ، وإنما نزل لهداية البشرية كلها فى عصر الرسول ﷺ وبعد عصره وإلى أن تقوم الساعة ، فلو انفصلت آية صدق الرسول ﷺ عن نفس القرآن كما حدث فى الرسالات السابقة ، فمن الذى كان يأتى الناس بهذه الآية التى هى المعجزة بمعناها الاصطلاحى الآن ؟

يعنى : أنه إذا ارتاب قوم فى صدق النبى ﷺ فى عصرنا الحاضر ، فمن أين نأتى بالرسول ﷺ ليطالبوه بمعجزة مادية تدل على صدقه ؟ ولهذا كان القرآن نفسه بياناً ومعجزة فى آن واحد ، ولم تكن مادة إعجازه شيئاً واحداً بحيث لا تلائم إلَّا عصراً واحداً أو مجموعة من الأجيال بعينها ، بل كانت مواد إعجازه كامنة فى أطوائه ، وكلما تقدم المنكرون الجاحدون فى العلم المادى انكشف من وجوه إعجازه وجه يقمع ضلالات الكفر ، ويهدى إليه الآلاف المؤلفة فى كل عصر ، وهو ما نشهده الآن وقبل الآن ، وما ستشهده الأجيال بعد الآن بإذن الله .

وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا المعنى فى حديث أخرجه البخارى عنه قال : « ما من الأنبياء نبى إلَّا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » .
**قالوا فى معناه** : إن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ، فلم

---

(١) سورة البقرة : ٢٦ .

يشاهدها إلَّا من حضرها ، ومعجزة القرآن باقية إلى يوم القيامة ، وخرقه للعادة فى أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات ثابت ، فلا يمر عصر من الأعصار إلَّا ويظهر فيه شيء مما أخبر أنه سيكون ، ليدل على صحة دعواه ، والمعجزات كانت حسية تُشَاهد بالأبصار ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة ، فيكون من يتبعه فيها أكثر ، فما يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهديه ، وما يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًّا .

ومن هنا كان استبطان القرآن للبيان والإعجاز معاً فى وقت واحد دليلًا على صدقه وعالمية رسالته ، وذلك لأن الجاحد العريق فى الجحود لا يمكن أن يؤمن إلَّا إذا صدمته خارقة تهدم مذهبه المادى المتأصل فى أعماقه وتهدده فى الوقت نفسه بخارقة مثلها تأتى على ما بناه من أمجاد مادية فى لمح البصر ، وتلك هى سنة الله الماضية التى سجلها القرآن فى تواريخ الرسل ، ولفت إليها أنظار الناس فى كل زمان فقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾ (١) .

ولقد كان القرآن ومايزال وافياً بحاجات البشر فى الإقناع والتحدى كلما فرح جيل بما عنده من العلم ، وما زال العلم يكشف من أسراره كل يوم عن جديد يكشف عن أخطاء العلم فى أحدث نظرياته ، فإنكار إعجازه ــ على هذا ــ يعتبر تآمراً على دعوة الإسلام ، وعملًا لئيماً على انحسار امتدادها ، وتجريداً له من سلاحه الهادف الذى زوّده الله تعالى به لا سيما بعد وفاة الرسول ﷺ ، بل وإنكاراً لما هو واقع ملموس يشهد له العدو والصديق معاً ، بل إن إسلام العلماء فى العصر الحديث ما كان إلَّا على ضوء لون من هـذا التحدى فى مختلف فروع المعرفة .

هل كان يمكن أن يؤمن العرب دون أن يذعنوا لإعجاز القرآن إلى جانب إذعانهم لوضوح البيان ؟

---

(١) سورة غافر : ٨٢ ، ومحمد : ١٠ .

**أقول** : إن أئمة الكفر أنفسهم شعروا بسلطانه على القلوب ـــ وهو القدر المتاح لهم لإدراك إعجازه البيانى ـــ فقالوا لأتباعهم : ﴿ **لَا تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْآنِ والْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُم تَغْلِبُونَ** ﴾(١) . وذلك خوفاً من سريان الروح التى شعر بها الوليد بن المغيرة حين قال : « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته » . وهو نفس الإعجاز الذى أدرك منه عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ وجهاً يناسبه حينما سمع القرآن فى بيت أُخته فتهاوى صرح الشرك من قلبه ، وشمخ صرح الإيمان فى كيانه ، إلى آخر ما هو معلوم لنا فى تاريخ دعوة الإسلام .

لقد صحح القرآن كثيراً من النظريات العلمية التى كانت سائدة فى عصر التنزيل ، وسجّل فى مكان تلك النظريات حقائق ثابتة لا تقبل التبديل ولا التغيير ، فكان ذلك إلى جانب استعمال القرآن للحقائق الكونية فى الدعوة إلى الخالق الحكيم المبدع تحدياً للعقل البشرى بإحقاق الحق مكان الباطل على يد رسول أمى ما كان يتلو كتاباً ولا يخطّه بيمينه .

وصدق الله تعالى الذى تحدَّى العالم كله فى كل العصور فى معرض الدلالة على وحدانيته وتفرده بالسلطان ، وذلك حينما قرر قيام دولة الإسلام على الأرض ، وعجز كل القوى العالمية عن أن تقضى على مجدها فقال : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً** ﴾(٢) ، وقال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾(٣) . ومؤامرات العالم على الإسلام وصموده شامخاً أمام المؤامرات ، بل واتساع سلطانه على القلوب أعظم دليل على اتساع مدى الإعجاز القرآنى إلى جانب إقناع البيان ، وتجاوز

---

(١) سورة فصلت : ٢٦ . (٢) سورة النور : ٥٥ .
(٣) سورة الأنفال : ٣٦ .

هذا الإعجاز نطاق البلاغة والفصاحة ، وتصحيح النظريات العلمية ، والتنبؤ بالمستقبل ، إلى نطاق السياسة والاجتماع والعلوم التجريبية كلها .

ولو لم يكن القرآن معجزاً لأهل عصره لكان قصاراه : أن يكون أسلوباً ممتازاً يلقى فصحاء العرب إلى من جاء به بزمام التفوق والسلطان ، شأنه فى ذلك شأن المعلقات السبع وأمثالها ، أما والرسول العظيم ﷺ يأبى أن تكون الشمس فى يمينه والقمر فى يساره إلَّا أن يظهر دين الله ، فالأمر إذن فوق جودة الأسلوب ، وفوق كل الاعتبارات ، ذلك هو : إذعان العرب عاجزين ، أو انقيادهم مختارين إلى تلك العظمة القرآنية التى تفوق مقاييس العظمة الأسلوبية المتعارفة آنذاك .

لقد اشتبه الأمر على العرب ، فلم تكن فى الرسالات السابقة معجزات باطنة فى الكتب التى أنزلت على الرسل ، أى : لم تكن هناك معجزات من جنس الكلام ، بل كانت معجزات مادية منفصلة تماماً عن الكتب السماوية ، وهذا الواقع هو الذى دفع العرب إلى أن يقولوا : ﴿ **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ** ﴾ (١) وإلى أن يطلبوا منه أن يجعل لهم الصَّفا ذهباً ، ... وإلى أن يقولوا عن القرآن : ﴿ **هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ** ﴾ (٢) حينما لم يهتدوا بعيداً عن معجزات المادة .

وليس فى تحدى الله لعباده انتقاصاً من هيبة الله تعالى ، بل إن الإنسان الذى أحل نفسه مكان الله فى الأرض كان وما يزال بعيداً عن الإذعان إلَّا على وجه التحدى البيانى ، ثم التحدى بالقوارع المدمرة ، على أن آيات القرآن مليئة بتحدى المخاطبين . ألم يقل الله تعالى لليهود : ﴿ **فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً** ﴾(٣) ؟ ألم يقل لهم : ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (٤) ... ﴿ **قُلْ**

---

(١) سورة صٓ : ٧ .
(٢) سورة الأحقاف : ١١ .
(٣) سورة الجمعة : ٦ – ٧ .
(٤) سورة آل عمران : ٩٣ .

صَدَقَ اللَّهُ ﴾ [١] ؟ وقال : ﴿ هَاتُواْ بُرهَانكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٢] . أليس هذا هو التحدى بعينه ؟ أليس هذا التحدى إبرازاً لعظمة الله ، وتقريراً لسلطانه وجبروته فوق كل جبروت ؟

## بداية القول بعدم إعجاز القرآن :

ولكنها فرية قديمة ، ونحلة متهالكة كانت فى الماضى ، وقد بدأت تطل برأسها على أيدى المدربين على دس الإلحاد فى ثنايا الإيمان فى الحاضر من المستشرقين وأذنابهم أدعياء الإسلام .

تلك الفرية هى القول بعدم إعجاز القرآن ، أو بأن مقاصده لا تشمل التحدى .

وأول من قال بعدم إعجاز القرآن فى نظمه ( إبراهيم بن إسحاق النظام ) المعتزلى الذى هلك فى القرن الثالث الهجرى ، قال عنه أبو منصور البغدادى فى كتابه ( الفرق بين الفرق ص ٧٩ ، ٨٠ ) : « عاشر فى شبابه قوماً من الثنوية والسمنية ، وخالط بعد كبره قوماً من ملحدة الفلاسفة ، ثم دون مذاهب الثنوية ، وبدع الفلاسفة ، وشبه الملاحدة فى دين الإسلام ، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات ، ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفاً من السيف ، فأنكر إعجاز القرآن فى نظمه ، وأنكر معجزات نبينا ﷺ ، ليتوصل بإنكار معجزات نبينا إلى إنكار نبوته » .

أرأيت يا أخى إلى أين يسير بنا القائلون بعدم إعجاز القرآن فى عصرنا الحاضر ؟

أرأيت من هم شيوخهم فى هذه النحلة الكافرة الخبيثة ؟

أرأيت كيف يكون غش المحدثين باسم الفكر العصرى وهم يرددون نحلًا بال عليها الزمان ؟

ولم يكتف إبراهيم النظام القائل بعدم إعجاز القرآن توصلًا إلى

---

(١) سورة آل عمران ٩٥ . (٢) سورة البقرة : ١١١ .

إبطال نبوة الرسول ﷺ بما نقله إلينا من ضلالات الثنوية والبراهمة وغيرهم ، بل أنه احتاط لأمره احتياطاً شيطانيًا ، وذلك أنه كما يقول البغدادى : « استثقل أحكام الشريعة ، ولم يجسر على إظهار رفعها ، فأنكر حجة الإجماع ، وحجة القياس فى الفروع الشرعية ، ولما علم إجماع الصحابة على الاجتهاد فى الفروع الشرعية ذكرهم بما يقرؤه غداً في صحيفة مخازيه ، وطعن فى فتاوى أعلام الصحابة ، وجميع فرق الأمة » . ثم ساق البغدادى من فضائحه وكفرياته الشنيعة إحدى وعشرين فضيحة من أرادها فلينظرها فى كتاب ( الفرق بين الفرق ص ٨٠ – ٩١) .

**ومن العجيب** أننا نجد امتداداً لتلك النحلة فى عصرنا الحديث : دعوات هزيلة إلى إعادة النظر فى اجتهادات السابقين من الأعلام ، ودعوة إلى إحلال الرأى مكانها بينما القاعدة تقول : لا يجوز خرق الإجماع إلّا بإجماع مثله . إن صحت هذه القاعدة ، فأين أهل الإجماع فى عصرنا حتى يخرقوا بإجماعهم إجماع الصحابة والتابعين ؟!

**ويكفى أن يعلم القارئ** : أن إبراهيم النظام هذا وهو معتزلى المذهب قضى المعتزلة بكفره ، ومنهم خاله أبو الهذيل العلاف ، والجبائى ، والإسكافى ، ... وكثير غيرهم . وكفَّره أهل السنة وألفوا فى تكفيره كتباً ومنهم : الأشعرى ، والقلانسى ، والباقلانى وغيرهم كثيرون .

ولقد عاد هذا الخبيث ( النظام ) فصادم إجماع المسلمين على إعجاز القرآن بقوله : إن هذا الإعجاز كان بالصرفة ، أى أن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم وقدراتهم على ذلك ، وكانت معارضة القرآن مقدورة لهم ، لكن عاقهم عنها أمر خارجى ، فصار القرآن معجزة لذلك .

**وأقول** : إن هذا القول معناه : الارتداد إلى الفكر اليهودى السائد فى سفر التكوين ، والذى يصف الله ــ سبحانه ــ بالتردد والغيظ من عبيده ، إذ أنه كما يتصورون قد ندم على خلق آدم لما وجد أنه سوف يسبب له المتاعب ، واغتاظ حينما سادت الأخوة الإنسانية ، فبلبل ألسنة

الناس ليحل العداء محل الحب بسبب عدم فهم بعضهم لغة بعض . ويتصل قول النظام هذا بالفكر اليهودى فى صورة أوضح حينما نقارنه بما جاء فى سفر التكوين من أن صراعاً مريراً كان يدور بين الله وخلقه ، حتى لقد تغلب يعقوب ــ عليهِ السَّلام ــ فخلع حق فخذه .

**وخلاصة الفكر اليهودى** : أن الله كما تصوروه : قابل للهزيمة ، بارع فى التآمر ضد عباده ، متردد فى أفكاره ، يقرر الشىء ثم يرجع عنه ، ويعالج هذا التردد بالكيد لعباده ، وهو نفس القول الذى ردده المختار الثقفى باسم ( نظرية البداء ) إذ كان الله يعده بالنصر ، ثم يبدو له أن يغير موقفه فيصيبه بالهزيمة .

أليس القول بأن العرب كان فى مقدورهم معارضة القرآن ولكن الله صرفهم عن ذلك ، وثيق النسب بهذا الفكر اليهودى المشبوه ؟؟ وأليس التحدى ثم الصرف على هذه الصورة التى رسمها إبراهيم النظام عبارة عن ضرب من ضروب الخداع والهروب من الحقيقة جل الله تعالى عن مثله ؟؟ أليس هذا القول يساوى نسبة خطأ التقدير إلى الله ، ثم التخلص من هذا الخطأ بلعبة تشبه ألعاب السياسة المعاصرة ؟؟ وإلَّا فكيف يتحدى الله العرب صراحة أن يأتوا بمثل القرآن ، أو بآية واحدة من مثله ، وهم مصروفون بطبيعتهم ، أو بصرفهم ــ سبحانه ــ عن الاستجابة للتحدى بوسيلة ما من وسائل الصرف ؟ وهل يكون هذا العمل إلَّا عبثاً تجل عنه حكمة التدبير الماثلة أمام العالم والمعجزة له ، والهادية إلى مزيد من الإيمان فى الوقت نفسه ؟؟

يقول الإمام السيوطى ردًّا على هذا القول الذى قال به النظام ومن جرى مجراه : « إن هذا القول فاسد بدليل قوله تعالى : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْـجِنُّ** ... ﴾[1] الآية . فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم ، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل به . هذا مع أن

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .

الإجماع قد انعقد عل إضافة الإعجاز إلى القرآن . ويلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى ، وخلو القرآن من الإعجاز ، وفى ذلك خرق لإجماع الأمة على استمرار معجزة القرآن للرسول ﷺ بعد عصره » .

**وقال القاضى أبو بكر الباقلانى** : « ومما يبطل القول بالصرفة : أنه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة ، لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون بالمنع معجزاً فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره فى نفسه ، وليس هذا بأعجب من قول بعضهم : أن الكل قادرون على الإتيان بمثله ، وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجوه ترتيب أو تعلموه لوصلوا إليه به ، ولا بأعجب من قول آخرين : إن العجز وقع منهم ، وأما من بعدهم ففى قدرته الإتيان بمثله » .

**أما الجاحظ** فقد فضح أستاذه **إبراهيم النظام** فقال : « بعث الله محمداً ﷺ أكثر ماكانت العرب شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عدة .. وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدياً لهم بهم ، وتقريعاً لعجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ما كان مستوراً ، وظهر منه ما كان خفيًّا ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا : أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف . قال : فهاتوها مفتريات . فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر .. فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء أصحابه ، وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة ، أو آيات يسيرة ، كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره ، وأبلغ فى تكذيبه ، وأسرع فى تفريق أتباعه من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال ، وهذا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والعقل بطبقات ... » .

ومع احتفاظنا بأن القرآن كلام الله غير مخلوق نقول : إن كان صرف الله عباده عن معارضته أمراً مقرَّرًا فى الإسلام ، فلماذا لم يصرف الله العلماء عن معارضة خلقه فى العصر الحاضر ؟ ألا ترى أن العلماء فى معاملهم راحوا يتحدثون عن الإنسان الآلى ، وعن بناء الأجنة فى غير أرحام الأمهات ، وعن الأمطار الصناعية ، ولم يصب الله تعالى عالماً من هؤلاء بالجنون ، ولا بالمغص الكلوى كلما توجه إلى معمله ليصنع خلقاً كخلق الله ، بل كانت لهم حرية العمل ، وحرية الاعتراف بالعجز ، وكان من هذا العجز هدى للكثيرين من العلماء فى تلك الدول ، إما إلى الإسلام مباشرة ، أوإلى الإقرار بوجود الله المبدع الذى يعجز العالم كله أمام حكمته وإبداعه .

فمحاولة التشكيك فى إعجاز القرآن بحجة القول بالصرفة ، أو بحجة أنه آية للبيان وليست للإعجاز تخبط دعا إليه الحقد على الإسلام وعلى القرآن ، أوالتعصب العنصرى للجنس العربى تعصباً مصادماً لعالمية القرآن وعدم اختصاصه بجنس دون جنس .. ولقد فند الإمام المحقق الشيخ محمد زاهد الكوثرى رحمه الله هذا الزعم فى كتابه ( العقيدة النظامية ) ، ولكن ضلالات المستشرقين ، من أمثال جولدزيهر ، وردل ، ومرجيلوث ، وجب ، وضلالات أذنابهم وعلى رأسهم طه حسين فى كتابه عن ( الشعر الجاهلى ) من أنصار المذهب الديكارتى ما زالت تحتاج إلى جهود مضادة تنير قلوب الشباب المسلم بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

* * *

# وُجُوهُ إِعْجَازِ القُرْآنِ

انتهينا إلى أن حكمة الله تعالى اقتضت أن تكون معجزة الرسالة الخاتمة ، أو الآية الدالة على صدق الرسول ﷺ فى التبليغ عن ربه هى القرآن الذى جمع بين البيان الواضح ، والإعجاز القاطع لحجة العناد والجحود ، وذلك ليتهيأ استمرار التبليغ بعد الرسول ﷺ ، واستمرار وسائل الإقناع على مر الزمن .

وعلى هذا لم يكن دليل إعجاز القرآن قاصراً على الإعجاز البيانى كما كان فى عصر النزول ، بل كان جامعاً لعدد هائل من دلائل الإعجاز بحيث يواجه كل العصور ، وجميع نواحى النشاط الإنسانى فى تفوق معجز ، يجذب إلى دعوته المزيد من الأجيال .

# جُهُودُ العُلَمَاءِ الأَقْدَمِينَ

**بذل الأقدمون** جهودًا مشكورة فى محاولة الكشف عن وجوه إعجاز القرآن ، وألفوا فى ذلك كتباً ، ومنهم : أبو سليمان الخطابى ، وعلى بن عيسى الرمانى ، وفخر الدين الرازى ، وابن سراقة ، وأبو بكر الباقلانى ، والكمال بن الهمام ، وابن الزمكانى ، والسيوطى ، وعبد القاهر الجرجانى ، وغيرهم .. وقد تكلم الكثيرون عن هذا الموضوع فى التفاسير والكتب ذات الموضوعات الأخرى ، ومنهم : ابن عطية ، والمراكشى ، والأصبهانى ، والسكاكى ، والسهيلى ، والقاضى عياض ، والزركشى وغيرهم .

**أما فى العصر الحديث** فقد كتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعى كتاباً فى إعجاز القرآن ، وتحدث كثيرون عن الإعجاز فى كتب ليست فى موضوعه ، ومنهم إمام العصر ، ونزيل مصر ، الشيخ محمد زاهد الكوثرى وكيل المشيخة الإسلامية العثمانية ، والأستاذ عباس

محمود العقاد ، والأستاذ محمد الغمراوى ، رحمهم الله جميعاً .

والذى يسترعى الانتباه أن العلماء على ما لهم من الاقتدار وسعة المعرفة وقفوا هم الآخرون مبهورين أمام إعجاز القرآن ، فراحوا يرددون وجوهاً عامة وغير محدودة أحياناً ، كقولهم : إن الإعجاز فى جودة الرصف ، وحسن النظم ، وما أشبه ذلك من الصفات العامة التى لا تكشف عن وجه الإعجاز فى جودة الرصف ، ولا حسن النظم . وأحياناً أُخرى ذكروا وجوهاً قالوا : إنه لا يمكن وصفها ، كما قال السكاكى فى مفتاح العلوم : « إعجاز القرآن يُدَرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ، ولا يدرك تحصيله لغير ذوى الفطرة السليمة إلّا بإتقان علمى المعانى والبيان والتمرين فيهما » .

فإذا كانت تلك المحاولات تنطق بالعجز عن إدراك وجوه الإعجاز ، فقد صرح بعض العلماء بهذا العجز . قال أبو حيان التوحيدى فى ( المقابسات ) : « سئل بندار الفارسى عن موضع الإعجاز فى القرآن ؟ فقال : هذه مسألة فيها حيف على المعنى ، وذلك أنه شبيه بقولك : ما موضع الإنسان من الإنسان .. فالقرآن لشرفه لا يُشار إلى شىء فيه إلّا وكان المعنى آية فى نفسه ، ومعجزة لمحاوله ، وهدى لقائله ، وليس فى طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله فى كلامه ، وأسراره فى كتابه ، فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر » .

وقد قرر أبو سليمان الخطابى عجز جمهور العلماء عن إبراز تفاصيل وجوه الإعجاز فقال فى كتابه ( بيان إعجاز القرآن ) : « ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق » .

ومع ذلك فقد كان الإعجاز البلاغى للقرآن سبباً فى زلل الرأى عند المفسر الكبير ابن عطية شيخ القرطبى إذ قال بعد كلام طويل فى مقدمة

تفسيره : « ونحن تتبين لنا البراعة فى أكثره ، ويخفى علينا وجهها فى مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ فى سلامة الذوق ، وجودة القريحة ، وقامت الحجة على العالم بالعرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، وفطنة المعارضة » . فقوله : إن الحجة قامت على العالم بالعرب لا يمكن تسليمه على إطلاقه هكذا . إذ لا يمكن أن تكون البلاغة القرآنية الخارقة لبلاغة العرب هى سبب هداية الترك والفرس قديماً ، والأوربيين حديثاً ، بل يمكن أن يكون عجز العرب عن المعارضة عاملًا مساعداً ، وعنصراً واحداً من عناصر الدعوة عن طريق التفوق القرآنى فى جميع الميادين .

وهناك محاولات تفصيلية بعيدة عن العمومات تدور حول النظر التحليلى فى أسلوب القرآن للتعرف على وجوه إعجازه من وجهة النظر العربية يمكن الإشارة إليها على سبيل المثال لا الحصر .

**أولًا** : الموازين الدقيقة بين اللفظ والمعنى . وفى هذا يقول ابن عطية : « إذ ترتبت اللفظة من القرآن علم الله بإحاطته ، أى لفظة تصلح إن تلى الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول ... وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد » .

وقد أكمل ابن سراقة هذا المعنى فقال : « إن من اقتصر على معانيه وغير حروفه أذهب رونقه ، ومن اقتصر على حروفه وغير معانيه أبطل فائدته ، فكان ذلك أبلغ فى الدلالة على إعجازه » .

ولقد أدخل الفخر الرازى فى هذا الباب علم مناسبات الآيات والسور ، وارتباط بعضها ببعض حتى تصير شيئاً واحداً ، وبناءً متيناً لا خلل بين أجزائه ، حتى لقد قال : « إن الإعجاز يكاد ينحصر فى هذا المعنى الذى لا يوجد أبداً فى كلام البشر » . وقد أخرجنا بعون الله كتاباً مستقلًّا فى هذا الباب ، وزودته بدراسة وافية ، وهو (أسرار ترتيب القرآن ) .

**ثانياً** : تفرد القرآن بطريقة بيانية غير طرق العرب . وفى هذا المعنى يقول الأصبهانى فى تفسيره : « بيان كون النظم معجزاً يتوقف على بيان نظم الكلام ، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه ، فمراتب تأليف الكلام خمس : الأولى : ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض لتحصل الكلمات الثلاث : الاسم ، والفعل ، والحرف . والثانية : تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض لتحصل الجمل المفيدة ، ويقال له : منثور الكلام . والثالثة : ضم بعض ذلك إلى بعض ضمًّا له مباد ومقاطع ، ومداخل ومخارج ، ويقال له : المنظوم . والرابعة : أن يعتبر فى أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ، ويقال له : المسجع . والخامسة : أن يجعل له مع ذلك وزن ، ويقال له : الشعر .

والمنظوم إما محاورة ، ويقال له : الخطابة . وإما مكاتبة ، ويقال له : الرسالة . فأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الأقسام ، ولكل من ذلك نظم مخصوص ، والقرآن جامع لمحاسن الجميع على نظم غير نظم شىء منها . فلا يصح أن يقال للقرآن : رسالة أو خطابة ، أو شعر ، أو سجع ، كما لا يصح أن يقال : هو كلام . والبليغ إذا قرع سمعه فصل بينه وبين ما عداه من الكلام » .

**وقال الرمانى** : بعد أن ساق أنواع الكلام : « فأتى القرآن بطريقة مفردة ، خارجة عن العادة ، لها منزلة فى الحسن تفوق كل طريقة ، وتفوق الموزون الذى هو أحسن الكلام » .

**ثالثاً** : جمع القرآن لمراتب البيان فى أسلوب واحد . **قال أبو سليمان الخطابى** : « إن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى درجات البيان متفاوتة ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح الغريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرسل ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع شعبة ، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتى الفخامة ، والعذوبة ، وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادتين ، لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة يعالجان

نوعاً من الزعورة ، فكان اجتماع النوعين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن ، ليكون آية بينة لنبيه ﷺ » .

**رابعاً** : روعته فى القلوب : وقد فطن إلى هذا الوجه بعض المؤمنين بل وكثير من الجاحدين المنكرين أيضاً . **فيقول الخطابى** : « وقد قلت فى إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس ، وهو صنيعه فى القلوب وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى حال آخر ما يخلص منه إليه . قال تعالى : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّـهِ** ﴾ [1] ، وقال : ﴿ **اللَّـهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** ﴾ [2] » . **ويقول الزركشى** : « فمنها الروعة التى فى قلوب السامعين وأسماعهم ، سواء منهم المقر والجاحد ، ومنها أنه لم يزل غضًّا طريًّا فى أسماع السامعين ، وعلى ألسنة القارئين » . ويكتشف القاضى عياض أن هذه الروعة وتلك الهيبة كانت سبباً فى إسلام بعض الكفار من العرب فيقول : « ومنها الروعة التى تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم ، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته ، وقد أسلم جماعة عند سماع آياته منهم جبير بن مطعم ، فإنه سمع النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور . قال : فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ **أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** ... ﴾[3] إلى قوله : ﴿ ... **الْمُصَيطِرُون** ﴾ كاد قلبى أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإسلام فى قلبى » .

**خامساً** : ما وراء التكرار فى القرآن : وهذا الوجه يمكن أن نسميه تجاوزاً ( بالتركيب الكيميائى للقرآن ) . وذلك أن أسلوب القرآن من هذه الوجهة مركب تركيباً دقيقاً بالغ الدقة ، بحيث تقرب منه التركيبات

---

(١) سورة الحشر : ٢١ .
(٢) سورة الزمر : ٢٣ .
(٣) سورة الطور : ٣٥ .

المعملية التى توزن على مقادير بالغة الدقة ، ولا تؤتى النتيجة المأمولة منها إذا اختلت هذه التراكيب فى جزء من مائة منها .

هذا توجيه من توجيهات المكررات القرآنية يمكن أن نتبينه واضحاً من قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ** ﴾ (١) ، وقوله فى سورة المائدة : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** ﴾ (٢) . فقوله تعالى على لسان الكفار : ﴿ **بَل نَتَّبِع مَا أَلفَينا عَلَيهِ آبَاءَنَا** ﴾ لا يمنع أن يرجعوا عن اتباع آبائهم ، فهم لم يبلغوا النهاية فى دعوى إيمانهم بالأوثان ، ولهذا استعمل الله تعالى فى نفى هدايتهم لفظًا لا يبلغ النهاية فى اليقين وهو قوله تعالى : ﴿ **أَولَو كانَ آباؤُهم لا يعقلُون شيئًا** ﴾ . فإن فوق العقل فى اليقين ( العلم ) . أما فى المائدة فقد بلغ الكفار النهاية فى الاعتداد بالأوثان ، وقطعوا على أنفسهم طريق العودة عنها بقولهم : ﴿ **حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ . ولهذا استعمل الله فى نفى هدايتهم نفى العلم الذى هو أبلغ درجات اليقين فقال : ﴿ **أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً** ﴾ . والدليل على أن العلم أرفع من العقل أن الله لا يوصف بالعقل ، وإنما يوصف بالعلم . فهل ترى أدق وزناً لمعانى الألفاظ ، ومراعاة تناسبها من هذا الوزن الحق الذى نزل به القرآن ؟؟

ومن أمثلة هذه الدقة الرائعة التى لاتبلغها دقة العالم فى معمله ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ** ﴾ (٣) فاستعمل الفاء فى عطف النظر على السير ، وهى للتعقيب بلا تراخ بينهما . وقد

---

(١) سورة البقرة : ١٧٠ . (٢) سورة المائدة : ١٠٤ .
(٣) سورة النحل : ٣٦ .

تكرر هذا الاستعمال فى سورة النحل (٣٦) ، والنمل (٦٩) ، والروم (٤٢) وهكذا فى القرآن كله ما عدا سورة الأنعام فقد قال تعالى فيها : ﴿ **قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ** ﴾ [١] فاستعمل فى عطف النظر على السير ﴿ **ثم** ﴾ التى هى للتراخى ، فلم كان ذلك ، وماذا وراء هذا التكرار مع اختلاف العطف بين التعقيب والتراخى ؟

**أقول** : إن الآيات كلها تجمع على حث المؤمنين على النظر فى عواقب المكذبين ، وهذا نهج عام يشترك فيه العلماء وغير العلماء من المسلمين على طريق الدعوة إلى الله ، يهتدى به الجاحدون إلى الحق ، ويزداد به الذين آمنوا إيماناً ويقيناً ، وهو أن يتعظوا بمجرد رؤية آثار الكفار السابقين ، وكيف دمرت حضاراتهم وبادت حتى صارت أثراً بعد عين ، إذ يكفى : أن يُلقى الإنسان نظرة عابرة على آثار الفراعنة فى مصر ، أو على مدائن صالح بالمملكة السعودية ، ليدرك من خلال عظمة الحضارة وسطوة الخراب عظمة الله وسلطانه على الكون ، وتكفى زيارة واحدة يقوم بها الإنسان للحصول على هذه النتيجة العاجلة .

أما آية سورة الأنعام فهى تطالب بمنهج آخر فيه تريث وتراخ ودراسة علمية متأنية يخرج منها الباحثون بمزيد من التفاصيل ، ومزيد من النتائج والدلالات على وجود الله وعظمته . ولهذا كانت الملابسات التى تحيط بآية الأنعام تشير إلى المطالبة بهذه الدراسة المتأنية المتراخية التى تحتاج بطبيعتها إلى وقت طويل ، ففى الآية ( ٦ ) أشار الله تعالى إلى القرون الماضية ، وإلى القرون التى أنشأها من بعدهم فى قوله : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا من قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** ﴾ [٢] . فما دام موضوع السير هو البحث فى القرون الماضية والمتتابعة ، والتى أصبحت

---

(١) سورة الأنعام : ١١ .
(٢) سورة الأنعام : ٦ .

موضوع دراسة وبحث عن أسباب تحول الرى إلى جفاف ، والخصب إلى قفر والعمران إلى خراب ، كما أشارت إليه الآية التاسعة من سورة الأنعام ما دام الأمر هكذا فإن الأمر يحتاج إلى دراسة وبحث يقوم على العلم والتحليل ، وتسجيل الأسباب والنتائج ، ومخاطبة العالم كله بهذه الدراسات الهادفة . وكما قال الكرمانى فى كتابه هذا : « أمروا باستقراء الديار ، وتأمل الآثار ، وفيها كثرة ، فيقع ذلك سيراً بعد سير وزماناً بعد زمان ، ليعلم أن السير مأمور به على حدة ، والنظر مأمور به على حدة ، ولم يتقدم فى سائر السور مثله » .

والعجب العجاب من أمر تكرار القرآن وما يتراءى خلاله من إعجاز آيتان ، إحداهما من سورة الأنعام : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ** ﴾[1] ، وقوله فى سورة القلم : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ** ﴾[2] ، فأكثر ما يستعمل وزن (أفعل) فى لغة العرب مع الفعل الماضى ، كقولهم : أعلم من دب ودرج ، وأحسن من قام وقعد ، وأفضل من حج واعتمر . فلماذا استعمل مع الفعل المضارع فى سورة الأنعام ولم يستعمله مع الماضى كما فى سورة القلم ، وكما هو الغالب فى لغة العرب . ولماذا الباء فى آية (القلم) ، وحذفت فى آية الأنعام ؟

أما استعمال (أفعل) مع المضارع فى الأنعام فلأن سياق الكلام دائر حول المستقبل لبيان أصل عام ، وماض إلى الأبد ، فى شأن الرأى العام ، أو رأى (الجماهير) فيما يتصل بالعقيدة وشئون الدين بوجه خاص ، فالآية السابقة على آية الأنعام هى قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** ﴾[3] . بخلاف ما فى سورة القلم ، فإن الكلام فيها عن قوم ضلوا بالفعل ، هم الكافرون من قريش : ﴿ **فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ**

---

(١) سورة الأنعام : ١١٧ .

(٢) سورة النجم : ٣٠ .

(٣) سورة الأنعام : ١١٦ .

**الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ** ﴾[1] . يعنى : ضل فقال عن الرسول : إنه مجنون ، وعن القرآن : إنه سحر مبين .. فلما جاء ( أفعل ) مع المضارع فى الأنعام انقطعت مظنة الضلال إلى الله تعالى ، كما هو جائز فى المعنى إذا استعمل مع الماضى ، فصار معنى الآية فى الأنعام : إن الله أعلم بمن يضلون عن طريقه فى المستقبل ، فصار ورود أفعل مع المضارع اتباعاً للسياق ، وقطعاً لمعنى الإضافة المؤكد فى استعمالها مع الماضى كما هو الغالب فى لغة العرب ، فلما استعمله مع الماضى فى سورة القلم استعمله مع الباء ، إذ لو لم تذكر الباء لصار المعنى أنه تعالى أعلم الضالين عن سبيله ، وتعالى الله علواً كبيراً .

فانظر كيف خالف الغالب من لغة العرب فى الأنعام ، ولم يزد حرفاً لا معنى لزيادته مع فعل المستقبل حفظاً للقرآن من الحشو ، وكيف كان الاحتياط للمعنى فى سورة القلم حينما تعارض المعنى مع الاستعمال اللغوى الشائع فى لغة العرب ، فلم تكن الباء زائدة فى سورة القلم . ولهذا عقب الكرمانى على كلامه هنا بقوله : « فتنبه فإنه من أسرار القرآن » .

ثم انظر كيف يستعمل الكتاب والباحثون كلمتى ( ينفع ويضر ) مقترنتين بتقديم أيهما شاءوا ، وليس فى ذلك خلل فى معانيهم على أى حال ، ولكن كتاباً لا يقدم النفع على الضر ، أو الضر على النفع إلَّا لأن السياق و(هندسة النظم) و(والتركيب الكيميائى) و (الإبداع الجمالى ) يدعو إلى ذلك ، بحيث لا تجد نشازاً فى التركيب لا لفظاً ولا معنى ــ هذا الكتاب لم نعثر عليه إلى الآن إلَّا فيما بين دفتى كتاب الله العزيز الحكيم الذى لا يأتيه الباطل أبداً .

جاء فى سورة الأعراف : ﴿ **قُل لَّا أَمْلِكُ لِنفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا ما شَاءَ اللَّهُ** ﴾[2] وعلى هذا الترتيب جاءت آيات فى سورة : الرعد ،

---

(١) سورة القلم : ٥ – ٧ .
(٢) سورة الأعراف : ١٨٨ .

وسبأ ، والأنعام ، ويونس ، والأنبياء ، والفرقان ، والشعراء . وجاء تقديم الضرر على النفع فى سورة يونس : ﴿ **قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ (١) . وعلى هذا الترتيب الأخير سارت معظم آيات القرآن إلَّا فى المواضع الثمانية التى ذكرناها ، وإنما تقدم الضر على النفع لأنه أصل الفطرة التى نزل بها القرآن ، لأن العابدين يعبدون الله خوفاً من عقابه أولًا ، وطمعاً فى ثوابه ثانياً ، وعلى هذا دلت الدلائل فى فطرة البدائيين وفى وجدان الموحدين ، وقد سجل الله تعالى هذه الفطرة البشرية فى قوله تعالى : ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعًا** ﴾ (٢) . أما قوله تعالى : ﴿ **يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا** ﴾ (٣) ، فقد جاء معبراً عن نوع راق ومتطور من الفطرة ألف العبادة حتى تحولت إلى معرفة وحب لله ورسوله .

فلما اختلفت هذه المواضع الثمانية من القرآن مع الأصل ، فتقدم فيها النفع على الضر إذن ؟

اختلفت هذه المواضع الثمانية فتقدم النفع على الضر ، لأن السوابق من الآيات تدعو إلى هذا التركيب ، حرصاً على النظام القرآنى البديع المعجز من حيث لا يمكن بأى حال أن يستمر الناس فى كتاباتهم على مراعاة هذا النظام ، بل تعمهم الغفلة غالباً . ففى سورة الأنعام جاءت الآية بعد قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا** ﴾ (٤) . فالولاية والشفاعة تناسب النفع ، وعدم أخذ العدل يناسب الضر ، فجاءت الآية على هذا النسق : ﴿ **قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ ما لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا** ﴾ (٥) ، وفى يونس : ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾ (٦) ، فناسب تقديم النفع رعاية للنجاة ، وهى نفع . وفى الأنبياء جادل الكفار إبراهيم فى أصنامهم فقالوا :

---

(١) سورة يونس : ٤٩ .
(٢) سورة السجدة : ١٦ .
(٣) سورة الأنبياء : ٩٠ .
(٤) سوورة الأنعام : ٧٠ .
(٥) سورة الأنعام : ٧١ .
(٦) سورة يونس : ١٠٣ .

﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ** ﴾ [1] . حرصاً على بقائهم لمنفعتهم فى زعمهم . فقال تعالى : ﴿ **أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ** ﴾ [2] . وقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيفَ مَدَّ الظِّلَّ** ﴾ [3] ، واستمرت الآيات فى سياق يعدد نعم الله الجليلة فى عشر آيات ، ثم قال : ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ** ﴾ [4] .

وفى سورة (المؤمنون) قال تعالى : ﴿ **لَّكُم فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴾ [5] . وفى الزخرف ﴿ **فَاكِهَة** ﴾ على التوحيد ، و﴿ **منها تأكلون** ﴾ بدون واو .

والسبب أن القرآن لما راعى لفظ الجنة ، ولما كان الحديث فى (المؤمنون) عن الجنات بالجمع كانت الفواكه جمعاً ، ولما كان الحديث فى الزخرف عن الجنة مفردة كانت الفاكهة مفردة ، ثم يعود البحث إلى كشف جديد عن وجه بديع من وجوه الخلاف فى حذف الواو من آية الزخرف ، وإثباتها فى آية (المؤمنون) ، لأنها تتحدث عن جنات الأرض فى الدنيا ، وكان حق الكلام أن يقال : منها تبيعون ، ومنها تدخرون ، ومنها تأكلون ، فاقتضى الإيجاز المعجز أن يبقى ما به أساس الحياة مسبوقاً بواو تدل على بقية المنافع المقصودة من حدائق الأرض دون إخلال بالمعنى . أما فى الزخرف فالحديث عن جنة الخلد ، وليست للأكل فحسب ، فحذف الواو للدلالة على ذلك .

ولا حاجة بنا إلى التعليق على هذه الأمثلة القليلة التى انتقيناها من كتاب الكرمانى (أسرار التكرار فى القرآن) لندل على أن هذا التكرار بمعانيه باب واسع من أبواب إعجاز القرآن ، لا يرومه ولا يقاربه بشر على الإطلاق .

وأنت يا أخى حيثما طوفت فى هذا الكتاب الذى نقدمه فى طبعته

---

(١) سورة الأنبياء : ٦٥ . (٢) سورة الأنبياء : ٦٦ .
(٣) سورة الفرقان : ٤٥ . (٤) سورة الفرقان : ٥٥ .
(٥) سورة : المؤمنون : الآية ١٩ .

الثانية فإن دلائل الإعجاز من هذه الوجهة التي بحثها الكرماني في كتاب مستقل تواجهك دلالة بعد دلالة ، بحيث لا تمل أن تستكشفها من وراء التراكيب الموزونة بأدق الموازين ، والتي عبر عنها الكتاب الكريم بالحق وهذا التعبير بالحق يعنى أن هذا التحدى الموجه لأفصح أُمة نطقت بلغة القرآن إنما يهدف إلى تقرير الحق .

وإنك لا تنتهى من فقرة من فقرات هذا الكتاب إلَّا وقد تفاعلت مع كل مشاعرك ومداركك ، حتى تنتهى بك إلى نوع من الإذعان والرضا يمس أعماق القلب بلون هادئ وقوى من الأمن والطمأنينة إلى الحق الذى نزل به القرآن . ولا تبدأ فى فقرة أخرى إلَّا بدأت استكشاف مزيد من دقائق الأُسلوب القرآنى يزيد به الأمن إلى جناب الله ، والإيمان بالحق ، وهكذا يزداد بك الإيمان قوة إلى أن تستقر فى أعماقك العزة والبذل والفداء فى سبيل دعوة القرآن إيماناً بالقرآن ورسول القرآن : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** ﴾[1] .

وهذا المعنى هو الذى أشار إليه الزملكانى حين قال فى كتابه ( نهاية التأمل فى أسرار التنزيل ) : « إن الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص بالقرآن ، لا مطلق التأليف ، حيث اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة ، وعلت مركباته معنى ، بأن وقع كل فن فى مرتبته العليا فى اللفظ والمعنى » .
ويؤكد المراكشي هذا المعنى بقوله : « الدليل التفصيلي على إعجاز القرآن مقدمته التفكر في خواص تركيبه ، ونتيجته العلم بأنه تنزيل من المحيط بكل شيء علماً » .

**سادساً** : القرآن وتيرة واحدة : يقول الله سبحانه : ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾[2] . وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالى مشيراً إلى إعجاز القرآن من هذه الوجهة : « المراد : نفى

---

(١) سورة الأنفال : ٢ .　　　(٣) سورة النساء : ٨٢ .

الاختلاف عن ذات القرآن . يقال : هذا كلام مختلف ، أى لا يشبه أوله آخره فى الفصاحة ، أو هو مختلف الدعوى ، أى بعضه يدعو إلى الدين وبعضه يدعو إلى الدنيا ، أو هو مختلف النظم ، فبعضه على وزن الشعر ، وبعضه منزحف ، وبعضه على أُسلوب مخصوص فى الجزالة ، وبعضه على أُسلوب يخالفه ، وكلام الله منزه عن هذه الاختلافات فإنه على منهاج واحد فى النظم مناسب أوله آخره ، وعلى درجة واحدة فى الفصاحة ، فليس يشتمل على الغث والسمين ، ومسوق لمعنى واحد ، وهو دعوة الخلق إلى الله ، وصرفهم عن الدنيا إلى الدين .

وكلام الناس تتطرق إليه هذه الاختلافات ، إذ كلام المترسِّلين والشعراء إذا قيس عليه وجد فيه اختلاف فى منهاج النظم ، ثم اختلاف فى درجات الفصاحة ، بل فى أصل الفصاحة ، فلا تتساوى رسالتان ولا قصيدتان ، بل تشتمل قصيدة على أبيات فصيحة ، وأبيات سخيفة ، وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة ، لأن الشعراء والفصحاء فى كل واد يهيمون ، فتارة يمدحون الدنيا ، وتارة يذمونها ، وتارة يمدحون الجبن ويسمونه حزماً ، وتارة يذمونه ويسمونه تهوراً ، ولاينفك آدمى عن هذه الاختلافات ، لأن منشأها اختلاف الأغراض ، والأحوال ، والإنسان .

وكذلك تختلف أغراضه ، فيميل إلى الشىء ، تارة ، ويميل عنه أُخرى ، فيوجب ذلك اختلافاً فى كلامه بالضرورة ، فلا يصادف إنسان يتكلم فى ثلاث وعشرين سنة وهى مدة نزول القرآن ، فيتكلم على غرض واحد . ومنهاج واحد ، ولقد كان النبى ﷺ بشراً تختلف أحواله ، فلو كان هذا كلامه ، أو كلام غيره من البشر ، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

وهذا المعنى فطن إليه صاحب ( منهاج البلغاء ) حين قال : « وجه الإعجاز : استمرار الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه ،

استمراراً لا توجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة من جميع أنحائها فى العالى منه إلَّا فى الشىء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات الإنسانية ، فينقطع طيب الكلام ورونقه ، فلا تستمر الفصاحة فى جميعه ، بل توجد فى تفاريق وأجزاء منه .

وهذا الوجه الذى فطن إليه القدامى لا يحتاج إلى دليل على صحته ، فهذا القرآن بين أيدى الناس فى كل مكانٍ على مدى أربعة عشر قرناً ، وهذه كتب الأدباء ودواوين الشعراء هى الأُخرى فى كل مكان ، وهذا علم النقد الأدبى مكتمل المنهج لدى جميع النقاد ، وما وجدنا النقاد إلَّا ويتناولون الإنتاج الإنسانى بالتشريح وكشف ما فيه من ظواهر المد والجزر فى درجة الفصاحة والبلاغة ، وكشف ما يتداخله لا معنى له سوى المحافظة على جرس الكلام ، أو مداراة ما اعترى الفكر من فتور بتكرار الجمل على وجه الترادف والتكرار الخطابى الذى لا يبتدىء ولا يعيد .

أما القرآن فلم يستطع النقاد أن يصلوا فيه إلى ثغرة ، أو إلى وجه من وجوه النقص الكثيرة فى كلام البشر . كل ما قالوه : إن فيه تكراراً ، وقد رد عليهم الكرمانى بكتابه هذا الذى نقدمه للقراء أبلغ رد وأفحمه لمكابر حقود . وقالوا : إن القرآن موضوعات شتى وسور لا رابط بينها ، وقد أخرجنا كتاباً فى هذا الموضوع هو كتاب ( أسرار ترتيب القرآن ) للإمام السيوطى .

## العُنصُر العَالمى فِى إعجَازِ القُرآنِ

أشرنا إلى خطأ الإمام ابن عطية فى تعميمه القول بأن الحجة قامت على العالم بالعرب فى مسألة الإعجاز القرآنى .

ونزيد هنا : أن هذا القول قد يكون له بعض الوجاهة إذا فسرناه على أن عجز العرب المطبق عن معارضة القرآن بمثله ، وهم فى الذروة

العليا من البلاغة والتحكم فى زمام القول ، وجودة القريحة ، وصفاء السليقة ، هذا العجز من هؤلاء القوم الذى أنزل القرآن بلغتهم يشكل عنصراً واحداً من حجة القرآن على العالم ، وهذا العنصر يضع القرآن موضع الاعتبار أمام غير العرب من الناطقين بلغات أُخرى ، والذين لا يجيدون إلَّا تذوق المعنى فى القرآن ، وهم عن تذوق الأساليب العربية بمعزل .

وذلك لأن العرب لو نجحوا فى معارضة القرآن لأسقطوا على الفور حجة الرسول ﷺ على أنه رسول يبلغ عن ربه دعوة الإسلام الخاتمة ، ولو سقطت هذه الحجة القائمة للرسول لاندثرت الدعوة ، وأصبحت فى عداد النحل الكاذبة التى زخرت بها المراجع الإسلامية .

أما وقد عجز العرب تماماً عن معارضة القرآن ، فقد قامت حجة الرسول ﷺ على العرب ، وكان قيام هذه الحجة عاملًا رئيسيًّا فى إبراز حجة أُخرى تشير بوضوح إلى روح القرآن وأثره العجيب فى بناء القوة من الضعف ، والتماسك من التمزق ، وسمو الهدف من ماديته وأرضيته ، والعالمية من النعرة العصبية ، والنبل والإيثار من السعار المالى الرهيب ، وتواضع الرءوس من تعاليها ، إلى غير ذلك من معجزات التاريخ التى دبت فى الوسط العربى فى قوة وسرعة وعزم فسمت بهم من وهدة التحلل ، وفرقة التجمع حول شيوخ القبائل المختلفى النزعات والأغراض ، وهلهلة العقيدة فى الأحجار والكهان إلى الوحدة حول رسول الله ﷺ على أساس متين من عقيدة الوحدانية التى رفضت كل الشوائب ، وأحالت القتام الذى كان يسود الجزيرة العربية إلى صفاء ونقاء .

ودالت دول الشرك تماماً فى الجزيرة ، وكان جيش تبوك وبعث أُسامة بن زيد ، الذى توفى الرسول ﷺ قبل إنفاذه ، كان هذان العملان العسكريان بمثابة الإشارة النبوية إلى ساعة الصفر التى يتحول فيها جهاد الإسلام إلى الواقع العالمى ، بعد أن أقام حجته الناصعة بالقرآن العربى على العرب الناطقين بالعربية ، وأفصح من نطق بها .

من هنا يصلح العرب أن يكونوا حجة على العالم ، بعد ما قامت حجة القرآن عليهم بأنه صالح لبناء أمة لها خصائص الأمم الراقية إذا قيس الرقى بموازين العلم والعقل ، لا بمقاييس الشطط والهوى . وكانت صورة الإنسان المسلم الذى بناه الرسول ﷺ بالقرآن حجة على صلاحية القرآن للدعوة العالمية .

لم يكن الأُسلوب العربى إذن مهما بلغ من الإعجاز حجة على الروم والفرس والقبط ، لأن هؤلاء لا يدركون من ذوق العربية لا قليلًا ولا كثيراً ، وإنما كانت فاعلية القرآن ، وأعاجيب الفدائية التى كانت ماثلة أمام تلك الشعوب من جهة ، وتسامى السلوك ، وارتفاع الإنسانية إلى مستواها الحق الذى تهفو إليه الدنيا كلها هى الحجة الماثلة أمام الشعوب غير العربية ، مما جعلها بعد أن اطمأنت إلى العدل الذى حمله العرب إلى غيرهم تتحرق شوقاً إلى بحث هذا الكتاب الذى هدى العرب ، وبنى منهم تلك الأُعجوبة الماثلة أمامهم .

ومن هنا أيضاً كان غزو اللغة العربية للغات الأُخرى ، لأن هذا التطلع الملح الذى يتحرك فى أعماق غير العرب إلى استكشاف أسرار القرآن ومفاهيمه دفعهم إلى تعلم العربية ، وكان ذلك بالفعل ، حتى كان الغزو اللغوى العربى فى صف واحد مع الغزو العسكرى فى سبيل تأصيل العقيدة الخاتمة .

وكان أن تحول الجم الغفير من تلك الشعوب غير العربية إلى علماء فى العربية ، وإلى أُصوليين ومفسرين ومحدثين ودعاة لا يقلون شأناً عن الدعاة العرب فى نطاق دعوة الإسلام ، وما زالت الآلاف من تلك الأسماء غير العربية تدوى فى آفاق الأرض شاهدة على إعجاز القرآن من نواح غير النواحى الأُسلوبية والبلاغية .

ويكفى لإدراك معجزة القرآن العملية بعد الأسلوبية أن تعلم أن الأزهر قد أنشئ فى مصر للقضاء على شريعة القرآن على أيدى الأدعياء

الذين سموا أنفسهم بالفاطميين ، وحاولوا أن يحلوا محل شريعة القرآن مجموعة من المذاهب والنحل الفلسفية سجلها المقريزى فى خططه وكان مع الفاطميين الذهب ، وكان سب الشيخين يسطر على جدران جامع عمرو بن العاص ، وكان الإرهاب بالرءوس المحمولة على الرماح فى شوارع القاهرة . كان كل ذلك ، ولكن الناس لم يفتروا عن المظاهرات المعادية لتلك النحلة الغريبة وهم يرفعون شعاراً يسموا على كل اعتبار ، إذ كانوا يهتفون فى مظاهراتهم قائلين : « معاوية خال على وخال المؤمنين » .. وأخيراً تحول الأزهر الشيعى إلى الأزهر السنى بشيوخه من أهل السنة والجماعة إلى اليوم ؟

أليس ذلك إعجازاً فى روح القرآن ومعناه ؟

وإذا لم يكن إعجازاً فبم نسمى هذا النصر الساحق العجيب ؟

أليست تلك الواحدة أُعجوبة فى التاريخ ؟

أليست كافية فى شد أنظار العالم كله إلى القرآن ؟

وهو ما حدث بالفعل . وهذه واحدة من إعجازات القرآن الروحية والمعنوية والسلوكية تضاف مثيلاتها إليها فى العصر الحديث .

بقيت واحدة نكتفى بها لضيق المقام يمكن أن تكون منطلقاً إلى غيرها .

ذلك : أنه لا يوجد فى التاريخ كله كتاب سماوى ولا كتاب وضعه بشر ، يمكن أن يكون مصدراً لحقائق العلم والمعرفة كلها دون أن يشذ منها شىء إلَّا القرآن .

كتاب ذو موضوع واحد ، تدور حقائقه كلها حول ذلك الموضوع لإثباته ، وفى تطوافه بين الحقائق لإثبات حقيقته العظمى يستبطن كل العلوم والمعارف ما كان منها موجوداً من قبل تدوينه ، وما كان فى عصر تدوينه ، وما جد بعد عصر تدوينه إلى أن تقوم الساعة . كتاب مثل هذا الكتاب لم ولن يوجد إلَّا فى كتاب الله المبين ، القرآن الحكيم العزيز

المجيد الكريم .. هكذا سماه الله بأسمائه للدلالة الواضحة على أنه فوق متناول أى بشر أو ملك فى الكون .

موضوع واحد هو : إثبات وحدانية الله ، ونفى ما عداه من الأوثان وأوهام العقائد الملحدة .

وفى سبيل إثبات الوحدانية الإلهية استخدم القرآن كل المعارف والعلوم ، وشرع الشريعة الحارسة على هذا الاعتقاد الصحيح ، ووضع الضوابط لعلم الاجتماع الإنسانى ، وكيف لا تتضارب المصالح ، ولا تتصارع الأمم ، وأشار إلى مواطن النماء المالى فى الأرض وفى البحر ، ورسم الخط الواضح للسياسة المالية فى جميع العصور ، ومن منهجه التربوى كان منهج التعليم الأمثل الذى يجب أن يسير عليه الناس إذا طلبوا العافية والسلامة فى دنياهم وأخراهم ، ورفع همم المؤمنين عن الماديات إلى المعارف الروحية فيما وراء المادة .

وقد نقل الإمام السيوطى فى الإتقان عن أبى الفضل المرسى فى تفسيره أنه قال :

« جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلَّا المتكلم بها ، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر الله بعلمه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم ، مثل الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، حتى قال : لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله . ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضاءل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه ، فنوعوا علومه ، وقامت كل طائفة بفن من فنونه ، فاعتنى قوم بضبط لغاته .. واعتنى النحاة بالمعرب والمبنى منه من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها .. حتى إن بعضهم أعرب مشكله ، وبعضهم أعربه كلمة كلمة ..

واعتنى المفسرون بألفاظه ، فوجدوا لفظاً يدل على معنى واحد ،

ولفظاً يدل على معنيين ، ولفظاً يدل على أكثر ، فأجروا الأول على حكمه ، وأوضحوا معنى الخفى ، وخاضوا فى ترجيح أحد محتملات ذى المعنيين والمعانى ، وأعمل كل منهم فكره .

واعتنى الأُصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية ، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده ، وسموا هذا العلم : أُصول الدين . وتأملت طائفة معانى خطابه ، فرأت منها ما يقتضى العموم ، ومنها ما يقتضى الخصوص ، إلى غير ذلك ، فاستنبطوا أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز ، وتكلموا فى التخصيص والإخبار ، والنص والاجتهاد ، والظاهر ، والمجمل والمحكم ، والمتشابه ، والأمر والنهى .. وسموا هذا الفن : أُصول الفقه » .

ثم عدد ابن أبى الفضل علوم الدين والأدب والأمثال والحكم والوعظ والمعاد ، وأُصول تعبير الرؤيا ، والظواهر الكونية ، وعلوم الحقائق ، والطب ، والجدل ، والهيئة ، والهندسة ، والجبر ، والمقابلة ، وأُصول الصناعات ، ونبه إلى مكانها من القرآن .

بل إن السيوطى نقل : أن سكوت القرآن عن حقيقة من الحقائق يمكن استنباط الحقيقة منه . ومثل له باستدلال جماعة على أن القرآن غير مخلوق بأن الله تعالى ذكر الإنسان فى القرآن فى ثمانية عشر موضعاً وقال : إنه مخلوق . وذكر القرآن فى أربعة وخمسين موضعاً ، ولم يقل : إنه مخلوق . فلما جمع بينهما غاير فقال : ﴿ **الرَّحْمن * عَلَّمَ الْقُرْآن * خَلَقَ الْإِنسَان** ﴾[1] .

ونقول : إن فى قوله تعالى : ﴿ **عَلَّمَ الْقُرْآن** ﴾ دليلًا على أنه غير مخلوق لأنه أرجعه إلى ذاته يعلم به عباده ، لا إلى خلقه الذى وضعه بين عباده يتصرفون فيه حيث شاءوا .

ولقد جمع الإمام بن أسد المحاسبى من هدى القرآن ما يمكن أن

---

(١) سورة الرحمن : ١ - ٣ .

يسمى « علم النفس القرآنى » . وذلك فى كتابيه : « الرعاية لحقوق الله » و « أدب النفوس » ، وفى كتاب ثالث يعتبر امتداداً للكتابين السابقين هو « أعمال القلوب والجوارح » .

ولقد بذل المحدثون جهداً فى هذا السبيل نرى أنه يتطلب الزيادة والعمق فى كتاباتهم نحو نظم الحكم ، ونظام المال ، وغير ذلك من مواضيع الثقافة الجديدة ، وبحث أُصولها فى القرآن .

كما تكلم المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى كتابه « الإسلام فى عصر العلم » بما يثبت الوصاية الشرعية على العلم الحديث وإعجازه للعقل البشرى .

ونبه الكثيرون من علماء الأجانب على هذا المعنى .

ومن ذلك ما قاله ( جول لابوم ) : « القرآن أكثر من الوعظ والترغيب والترهيب ، بل إنه علم اجتماع ، فلم يوجه الكلام إلى الكبراء والقادة ، بل وجهه للناس جميعاً بقوله : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قُوا أَنفُسكم وَأَهْلِيكُم نَارًا** ﴾ (١) و ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ (٢) ولم يذكر السادة إلَّا فى معرض النص على الأُمم فى استسلامها لضلال قادتها وأهواء كبرائها فقال : ﴿ **رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا** ﴾ (٣) .

ويقول ديسون : « فى القرآن أمثلة كثيرة على هذه الدعوة العالمية . فالواقع أنه يساير الفلسفة الحديثة كل المسايرة ، ويتفق معها كل الاتفاق ( ؟ ) وأوامره لا تناقض المبادئ العلمية . فالقرآن ليس كتاب عقيدة وإيمان فحسب ، إذ لا يمكن أن تفرض العقيدة إلَّا إذا جعلتها فى صورة يقبلها العقل ، ويطمئن إليها الفكر ، ولا يمكن للإنسان أن يعتقد عقيدة جديدة

---

(١) سورة التحريم : ٦ . (٢) سورة النساء : ١٧٤ .
(٣) سورة الأحزاب : ٦٧ .

بدون مبرر قوى ، وبراهين واضحة . وهو ليس كتاب تشريع وأخلاق فحسب ، فالتشريع والأخلاق لابد لهما من فلسفة قوية يقومان عليها ، والمشرع الأخلاقى يجب أن يكون فيلسوفاً ، فلا يمكن أن يحث القرآن على الزهد إن لم يتحدث عن قيمة الحياة الآخرة ، والخلود ، والبعث ، وهذه مسائل فلسفية ، كما أن القرآن لا يمكن أن يبشر بالتوحيد إن لم يطرق البحث فى الخالق وصفاته وهذه مسائل فلسفية . فالقرآن تعرض لكل بحوث الفلسفة ، فتكلم فى الله وصفاته ، وعرض للروح ، وبحث فى الخلود والبعث ، وصور للإنسان مثلًا أعلى يجب أن ينشده ، واختط له طريقاً يجب أن يسلكه » .

ويقول دريبر : « إننا لندهش حين نرى فى مؤلفات المسلمين من الآراء العالمية ما كنا نظنه من نتائج العلم الحديث فى هذا العصر ، ومن هذا : إن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباً حديثاً كان يُدَرَّسُ فى مدارسهم ، ولقد أحس المسلمون إحساساً صادقاً بتطور الحياة ، حتى إن الفقه الإسلامى ذاته تطبيق عملى لفكرة التطور البشرى وذلك أن مهمته الدائمة هى البحث عن حلول جديدة للمشكلات المتطورة المستجدة ، مستمدة من أُصول الدين وروحه .. ولو كان رجال الدين فى أوربا على هذا الفهم الناجح فى القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر لما صدمتهم بحوث العالم الجديدة ، ولما قامت النفرة بينهم وبين العلم ، تلك النفرة التى أودت بأوربا كلها ، وتكاد تؤدى بالإنسانية كلها نحو الهاوية » .

وأخيراً نسوق قول الأُستاذ العقاد يؤيد الإعجاز الروحى والمعنوى للقرآن فى صورة ما يسمى الآن بالديمقراطية مذهباً سياسياً قرره الإسلام فى صورته المثلى . يقول : « معجزة أن تنبت الديمقراطية الإسلامية فى تربة الصحراء لا فى تربة الحضارة ، ولكنها معجزة إلهية مثلها فى الظهور بين الجاهلين كمثل الإيمان بالإله الواحد الأحد الذى لا يحابى قوماً

لأنهم قومه دون سائر الأقوام ، ولا يلعن قوماً لأنهم ورثوا اللعنة من الآباء والأجداد ، حق الإنسان الإيمان بالله رب العالمين . كلاهما معجزة إلهية تجلت بها قدرة الله على غير مثال سابق متسلسل عن أسبابه فى بيئته ، ولا فيما جاورها من البيئات ، فإن السوابق التى سلفت قبل الإسلام كانت كسوابق المرض الذى يتطلب الشفاء ، ولم تكن كسوابق العلاج الذى ينتهى إلى الشفاء . وتلك هى السوابق التى تتجلى فيها قدرة الله على يد رسول من رسله ، ينبعث بالهداية ، موفقاً بوحى من الله فيصنع المعجزة التى لم تمهد لها أسبابها ودواعيها ، لأن أسبابها الخفية ، ودواعيها الكامنة فى السريرة الإنسانية تفوق ذرع العقول ، ولا تدخل فى الحساب .. المرض الذى يؤدى إلى الموت سبب ، والمرض الذى ينتهى إلى العلاج سبب ، فإذا اختلط علينا السببان ، وجاء الشفاء من حيث نتوقع الهلاك ، فتلك معجزة إلهية علمها عند الله ، وأسبابها غير الأسباب التى نقدرها قبل وقوعها » .

وهكذا يمتد نور القرآن ، فيداخل العقول فى كل مكان على ظهر الأرض يكاد يشبه فعله فيها فعل الصدمات الكهربية فى أدمغة المرضى العقليين ، إذ يفيقون بعدها وقد تفتحت عيونهم على الكون برؤية جديدة ، وإدراك رشيد ، ولم تكن تلك الموجات التى تروى الفكر فى أرجاء الأرض هى موجات اللغة والأسلوب . كل ما فى الأمر أن روح هذا القرآن صنعت المعجزة بين قوم عجزوا عن معارضته فأسلموا له القياد ، وبدأت بعد ذلك مسيرة القرآن فى العالم الناطق بمختلف الألسنة واللغات ، واكتشف هؤلاء الأعاجم من أسرار القرآن ودلائل إعجازه وعظمته وتفوقه على كل الدساتير والمناهج العلمية فى العالم كل ما لم يمارسه الناطقون بالعربية فى عصرنا الحاضر .

ألم يأن للمؤمنين أن يفتحوا أعينهم بعد ؟

ألم يأن لهم أن يجانبوا السفسطة وحب الظهور على حساب غمز القرآن ؟

ألم يأن لهم أن يتفرغوا للقرآن بدلًا من تفرغهم لأوهام ذوى المآرب العالمية ؟

ألم يأن لهم أن يرتفعوا عن ضيق الأُفق والعنصرية التى تهدد الزحف القرآنى نحو العالم ؟

بل : ألم يأن لنا أن ننشئ أكاديمية للدراسات القرآنية ؟

إن فى هذا فتحاً جديداً للعرب والمسلمين إن فعلوا ، والله نسأل لنا ولهم التوفيق .

عبد القادر أحمد عطا

القاهرة :

محرم ١٣٩٧ هـ

يناير ١٩٧٧ م

* * *

# مُقَدِّمَةُ المُصَنِّف (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام العالم العلامة ، تاج القراء أبو القاسم محمود [٢] ابن حمزة نصر الكرماني — رضى الله عنه ورحمه — :

الحمد لله الذى أنزل الفرقان [٣] على محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيراً ومعجزاً للإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، نحمده على تَفَضُّلِهِ علينا بكتابه [٤] فضلًا كبيراً ، وَمَنْ يُؤْتَ الحكمة فقد أُوتى خيراً كثيراً .

ونصلى ونسلم على المبعوث بشيراً ونذيراً ، وداعياً [٥] إلى الله بإذنه وَسِرَاجاً مُنيراً ، صلاةً ( دائمة ) [٦] تتصل ولا تنقطع بكرة وهجيراً [٧] .

**وبعـــد :**

فإن هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات [٨] التى تَكَرَّرَت فى القرآن وألفاظها مُتَّفِقة ، ولكن وقع فى بعضها زيادة أو نقصان ، أو تقديم أو إبدال [٩] حرف مكان حرف ، أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بين الآيتين أو الآيات التى تَكَرَّرَت من غير زيادة ولا نقصان ، وأبين ( ما ) [١٠]

(١) العنوان من عندنا لزيادة الفائدة ( المراجع ) .

(٢) فى أ : محمد . والمثبت عن ب ومعجم الأدباء لياقوت ٢٥/١٩ وطبقات المفسرين للداودى ٢٤٢/٢ وبغية الوعاة ٢٧٧/٢ وطبقات القراء ٢٩١/٢ .

(٣) فى ب : ( القرآن ) . (٤) فى ب : ( بكتابه تفضيلًا ) .

(٥) فى ب : ( ودعانا ) . (٦) سقطت من : ب . (٧) الهجير : وقت الظهيرة .

(٨) فى ب : ( المتشابهة ) . (٩) فى ب : ( بإبدال ) . (١٠) سقطت من أ .

السبب فى تكرارها[١] ، والفائدة فى إعادتها ، وما الموجب للزيادة والنقصان ، والتقديم والتأخير والإبدال ، وما الحكمة فى تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى ، وهل كان يصلح ( ما )[٢] فى هذا السورة مكان ما فى السورة التى تشاكلها[٣] أم لا ؟ ليجرى ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها ، وتمتاز ( بها )[٤] عن أشكالها ، من غير أن أشتغل بتفسيرها وتأويلها ، فإنى بحمد الله ( قد )[٥] بَيَّنتُ ذلك كله ( بشرائطه )[٦] فى كتاب « لباب التفسير وعجائب التأويل »[٧] مشتملاً على أكثر ما نحن بصدده ، ولكنى[٨] أفردت هذا الكتاب لبيان المتشابه ، فإن الأئمة — رحمهم الله تعالى — قد شرعوا فى تصنيفه واقتصروا على ذكر الآية ونظيرتها[٩] ، ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها . ( وهو )[١٠] المشكل الذى لا يقوم بأعبائه إلَّا من وَفَّقَهُ الله لأدائه .

وقد قال أبو مسلم[١١] فى تفسيره عن أبى عبد الله الخطيب[١٢] فى تفسيره كلمات معدودات منها ، وأنا أحكى لك كلامه فيها إذا بَلَغْتُ إليها ، مستعيناً بالله ، ومتوكلًا عليه .

وسميت هذا الكتاب « البرهان فى متشابه القرآن ، لما فيه من الحجة والبيان »[١٣] وبالله وعليه التكلان .

---

(١) فى ب : ( تكريرها ) .	(٢) سقطت من أ .	(٣) فى ب : ( تشابهها ) .

(٤) ، (٥) ، (٦) سقطت من ب .

(٧) كتاب « لباب التفسير وعجائب التأويل » ذكره ياقوت فى معجم الأدباء ٢٥/١٩ والداودى فى طبقات المفسرين ٢٤٢/٢ ، وهو مطبوع فى مجلدين ( المراجع ) .

(٨) فى أ : ( ولكن ) .	(٩) فى ب : ( ونظيرها ) .	(١٠) سقطت من أ .

(١١) أبو مسلم هو : محمد بن محمد على بن الحسين بن مهرايزد النحوى المعلم الأصبهانى الأديب . كان نحويًّا غالياً فى الاعتزال ، صَنَّفَ تفسيراً فى عشرين مجلداً . ولد عام ٢٦٦هـ ومات فى ٤٥٩هـ . انظر ( بغية الوعاة ٦٥٥/١ ، شذرات الذهب ٣٠٧/٣ ، لسان الميزان ٢٩٨/٥ ، ميزان الاعتدال ٦٥٥/٣ ، والوافى بالوفيات ١٣٠/٤ ) .

(١٢) هو : أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافى أحد علماء اللغة والأدب من أهل أصبهانى ، وكان إسكافاً ، ولى خطابة الرى ومات سنة ٤٢٠ هـ . له كتب فى اللغة والأدب .

(١٣) وقد سميناه « أسرار التكرار فى القرآن الكريم » لما بَيَّنَّاه فى المقدمة ، للعدول عن التسمية الأصلية ( المراجع ) .

# سورة الفاتحة

١ - أول المتشابهات قول : ﴿ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ ﴾ فيمن جعل ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ آية [١] من الفَاتحة . وفى تكراره قولان : قال علىّ بن عيسى [٢] : إنما كرَّرَ للتوكيد ، وأنشد قول الشاعر :

هَلَّا سَأَلْتِ جُمُوعَ كنـ ـدة يَـومَ وَلَّـوا أَيْنَ أَيْنَـا

وقال قاسم بن حبيب [٣] : إنما كَرَّر لأن المعنى : وجب الحمد لله لأنه الرحمن الرحيم .

قُلْتُ : إنما كَرَّر لأن الرحمة هى : الإنعام على المحتاج . وذكر فى الآية الأولى المنْعِم ولم يذكر المنْعَم عليهم ، فأعادها مع ذكرهم وقال : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمٰنِ ﴾ لهم جميعاً [٤] ، ينعم عليهم ويرزقهم ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ بالمؤمنين خاصة يوم الدين ، ينعم عليهم ويغفر لهم .

٢ - قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . كَرَرَ ﴿ إِيَّاكَ ﴾ وَقَدَّمه ، ولم يقتصر على ذكره مرة ، كما اقتصر على ذكر أحد المفعولين فى آيات كثيرة منها : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[٥] . أى : ما قلاك . وكذلك الآيات التى بعدها معناها : ( فآواك ــ فهداك ــ فأغناك ) ، لأن فى التقديم فائدة ، وهى : قطع الاشتراك ، ولو حذف لم يدل على

---

(١) الذين جعلوا البسملة آية من الفاتحة : ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، ومكحول ، وطاوس ، وابن المبارك ، وابن شهاب وطائفة لا تحصى والشافعى وابن وهب المالكى ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو عبيد ، وطائفة من أهل النظر والأصول ( العلوم والمعانى ورقة ١٥ ) .

(٢) على بن عيسى أبو الحسن الرمانى مفسر من كبار النحاة . ولد ببغداد ومات بها سنة ٣٨٤ هـ . له مؤلفات منها : التفسير وهو مفقود ، والمعلوم والمجهول ، والأكوان ، ورسائل فى إعجاز القرآن ... وغيرها . انظر ترجمته فى : ( بغية الوعاة ٢/١٨٠ ، ١٨١ ، وفيات الأعيان ، وتاريخ بغداد ٢/١٦ ، ونزهة الألباء ٢٨٩ ، وإنباء الرواة ٢/٢٩٤ ) .

(٢) قاسم بن حبيب ذكره الزبيدى فى الطبقة الرابعة من النحاة بالقيروان . ( طبقات النحويين واللغويين ٣٧٢ ) ، وذكره السيوطى فى بغية الوعاة ١٩١٧/٢٥٢/٢ .

(٤) فى أ : أجمعين . (٥) سورة الضحى ، الآية ٣ .

التقديم ؛ لأَنَّكَ لو قلت : إياك نعبد ونستعين ، لم يظهر أن التقدير : إياك نعبد وإياك نستعين ، أم : إياك نعبد ونستعينك ، فَكَرَّره[1] .

٣ - قوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيهِم ﴾ . كَرَّرَ ﴿ الصِّرَاطَ ﴾ لِعِلَّةٌ تَقْرُبُ مِمَّا ذكرت في ﴿ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ؛ وذلك أن الصراط هو : المكان المهيأ للسلوك ، فذكر في الأول المكان ، ولم يذكر السَّالكين ، فأعاده مع ذكرهم فقال : ﴿ صِرَاطَ الذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيهِم ﴾ . أي : الذي يسلكه النبيون والمؤمنون . ولهذا كَرَّرَ أيضاً في قوله : ﴿ ... إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم * صِرَاطِ اللَّهِ ﴾[2] لأنه ذكر المكان المُهَيَّأ ، ولم يذكر المهَيِّىء . فأعاده مع ذكره فقال : ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ ، أي الذي هَيَّأه للسالكين .

٤ - قوله : ﴿ عَليهم ﴾ ليس بتكرار ، لأن كل واحد منهما متصل بفعل غير الآخر ، وهو : الإنعام ، والغضب . وكل واحد منهما يقتضيه اللفظ ، وما كان هذا سبيله فليس بتكرار ولا من المتشابه .

## سُورَةُ البَقَرَةِ

٥ - قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴾ هذه الآية تتكرر في أوائل ست سور ، فهي من المتشابه لفظاً ، وذهب جماعة من المفسرين إلى أن قوله : ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[3] هي هذه الحروف الواقعة في أوائل السور ، فهي أيضاً من المتشابه لفظاً ومعنى ، والموجب لذكره أول البقرة من

---

(١) والفرق بينهما : أن معنى الأول : لا نعبد غيرك ، ولا نستعين بسواك ، والثاني : لا نعبد غيرك ونستعين بك وبسواك . فكرَّر إياك لقطع الاشتراك في أيٍّ من الفعلين .

(٢) سورة الشورى ، آية ٥٢ ، ٥٣ والصراط : الطريق والسبيل ، وذلك لقطع دعوى استقامة الطرق السلوكية التي يخترعها الناس ، ولتخصيص الاستقامة بطريق الله وحده . وفي آية الفاتحة ذكر هذا المعنى مفهوماً من نتيجة السلوك على الصراط ، وهي : الإنعام على السالكين من الله . فإنعام الله على سالكيه دليل على أنه طريقه المرضي عنده .

(٣) سورة آل عمران آية ٧ . والقول الذي نقله المؤلف هو قول مقاتل بن حيان .انظر (تفسير ابن كثير ٥/٢ ) .

القسم وغيره ، وهو بعينه الموجب لذكره فى أوائل سائر السور المبدوءة به ، وزاد فى الأعراف صاداً لما جاء بعده : ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنهُ ﴾ [1] ولهذا قال بعض المفسرين : معنى ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ [2] ألم نشرح لك صدرك . وقيل : معناه المصور . وزاد فى الرعد راء لقوله بعده : ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوٰتِ ﴾ [3] .

٦ - قوله : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيهِم ﴾ [4]، وفى يسٓ : ﴿ وَسَوَاءٌ ﴾ [5] بزيادة واو ، لأن مافى البقرة جملة هى خبر عن اسم إن ، وما فى يس جملة عطفت بالواو على جملة .

٧ - قوله : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَومِ الْآخِرِ ﴾ [6] ليس فى القرآن غيره تكرار العامل مع حرف العطف لا يكون إلَّا للتأكيد ، وهذه حكاية كلام المنافقين ، وهم أكَّدُوا كلامهم نَفْياً للريبة ، وإبعاداً للتهمة ، فكانوا فى ذلك كما قيل : ( يَكاد المريب يقُول خُذُونى ) . فنفى الله الإيمان عنهم بأوكد الألفاظ فقال : ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [7] ، ويكثر ذلك مع النفى ، وقد جاء فى القرآن فى موضعين : فى النساء : ﴿ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ «٣٨» ، وفى التوبة : ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَومِ الْآخِرِ ﴾ «٢٩» .

٨ - قوله : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ «٢١» ليس فى القرآن غيره ، لأن العبادة فى الآية : التوحيد [8] .

---

(١) سورة الأعراف : ٢ .
(٢) سورة الأعراف : ١ .
(٣) سورة الرعد : ٢ .
(٤) سورة البقرة : ٦ .
(٥) سورة يس : ١٠ .
(٦) سورة البقرة : ٨ .
(٧) سورة البقرة : ٨ .
(٨) انظر فى تفسير هذه الآية القرطبى ٢٣٨/١ ، والكشاف ٨٠/١ ، والبيضاوى ١/ ١٦، ومثل قوله تعالى :﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ الذاريات :٥٦ . أى يوحدون ، ومثل قوله تعالى : ﴿ فأنا أول العابدين ﴾ الزخرف ٨١ . أى الموحدين انظر تفسير الطبرى ٢٢٨/٢٧ ، والقرطبى ٥٥/١٧ ( المراجع ) .

والتوحيد أول ما يلزم العبد من المعارف ، فكان هذا أول خطاب خاطب الله به الناس فى القرآن ، فخاطبهم بما ألزمهم أولًا ، ثم ذكر سائر المعارف ، وبنى عليها العبادات فيما بعدها من السور والآيات .

**فإن قيل** : سورة البقرة ليست من أول القرآن نزولًا ، فلا يحسن فيها ما ذكرت .

**قلت** : أول القرآن سورة الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم آل عمران ، على هذا الترتيب إلى سورة الناس ، وهكذا هو عند الله فى اللوح المحفوظ ، وهو على هـذا الترتيب كان يعرضه عليه الصلاة والسلام على جبريل عليه السلام كل سنة أى : ما كان يجتمع عنده منه ، وعرضه عليه الصلاة والسلام فى السنة التى توفى فيها مرتين [1] ، وكان آخر الآيات نزولًا : ﴿ **وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ** ﴾[2] ، فأمره جبريل أن يضعها بين آيتى الرِّبا والدين [3] .

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن قوله فى هود : ﴿ **فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ** ﴾ «١٣» معناه : مثل البقرة إلى هود ، وهى العاشرة ، ومعلوم أن سورة هود مكية ، وأن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة مدنيات نَزَلْنَ بعدها .

---

(١) نقل القرطبى ١/٦٠ عن أبى بكر بن الأنبارى : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ثم فرق على النبى ﷺ فى عشرين سنة . وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث ، والآية تنزل جواباً لمستخبر يسأل ، ويوقف جبريل رسول الله ﷺ على موضع السورة والآية ... فمن أَخَّرَ سورة مُقَدَّمَةً ، أَوْ قَدَّم سورة مُؤَخَّرة ، فهو كمن أفسد نظم الآيات . وحديث عرض القرآن مرتين فى آخر حياة النبى ﷺ أخرجه أحمد فى المسند عن ابن عباس المسند ٢١٣/١ ، وموافقة ما فى مصحف عثمان للعرضة الأخيرة نقله القسطلانى عن الإمام أحمد ، وابن أبى داود فى المصاحف ، والطبرى من طريق عبيـدة السلمانى ، ومحمد بن سيرين (لطائف الإشـارات ٣٠/١ ، وانظر الإتقان ٧٧/١ - ٧٩ ) فقد استوعب السيوطى آراء العلماء فى ترتيب السور والآيات وأنها من الوحى ، وكذلك انظر مقدمة (تناسق الدرر فى تناسب السور ) للسيوطى أيضاً .

(٢) سورة البقرة : ٢٨١ .

(٣) تفسير القرطبى ٦٠/١ ، ٦١ أخرجه عن ابن عباس ، خلافاً لما روى عن البراء : أن آخر آية نزلت ﴿ **يستفتونك قل اللّـه يفتيكم فى الكلالة ...** ﴾ [ سورة النساء : ١٧٦ ] .

وَفَسَّرَ بعضهم قوله : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرآنَ تَرتِيلًا ﴾ « ٧٣ : ٤ » أى : اقرأه على هذا الترتيب من غير تقديم وتأخير ، وجاء النكير على من قرأه معكوساً [١] ، ولو حلف إنسان أن يقرأ القرآن على الترتيب لم يلزمه إلَّا على هذا الترتيب ، ولو نزل جملة كما اقترحوا عليه بقولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيهِ القُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ « ٢٥ : ٣٢ » لنزل على هذا الترتيب ؛ وإنما تفرقت سوره وآياته نزولًا لحاجة الناس حالة بعد حالة ، ولأن فيه الناسخ والمنسوخ ، ولم يكونا ليجتمعا نزولًا .

وأبلغ الحكم فى تفرقة ما قاله سبحانه : ﴿ وَقُرآناً فَرَقنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاس عَلَى مُكْثٍ ﴾ « ١٧ : ١٠٦ » وهذا أصل تنبنى عليه مسائل ، والله أعلم .

٩ - قوله تعالى : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ « ٢ : ٢٣ » بزيادة ﴿ من ﴾ السورة ، وغيرها ﴿ بسُورَة مِثْلِه ﴾ « ١٠ : ٣٨ » ، لأن ﴿ من ﴾ تدل على التبعيض ، ولما كانت هذه السورة سنام القرآن [٢] وأوله بعد الفاتحة ، حسن دخول ﴿ من ﴾ فيها ليعلم أن التحدى واقع على جميع سور القرآن من أوله إلى آخره ، وغيرها من السور لو دخلها ﴿ من ﴾ لكان التحدى واقعاً على بعض السور دون بعض ، ولم يكن ذلك بالسهل .

والهاء فى قوله : ﴿ من مثله ﴾ تعود إلى ﴿ ما ﴾ [٣] وهو القرآن ، وذهب بعضم إلى أنه يعود على محمد عليه الصلاة والسلام [٤] ، أى :

---

(١) هذا هو رأى ابن مسعود وابن عمر . انظر تفسير القرطبى ٦١/١ . وقد فسره القرطبى بقراءة السورة منكوسة أى من آخرها إلى أولها .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٢٦/٥ عن معقل بن يسار عن النبى ﷺ : « البقرة سنام القرآن وذروته ... » الحديث ، وفى الترمذى ١٨١/٨ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « لكل شىء سنام وإن سنام القرآن البقرة » أخرجه الطبرانى وأبو حاتم وابن حبان فى صحيحه ( مجمع الزوائد ٤٤٧/٢ ) ، والدارمى فى فضائل القرآن ٤٤٧/٢ عن ابن مسعود .

(٣) إشارة إلى ما فى قوله تعالى فى نفس الآية : ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا ...** ﴾ .

(٤) وهو مدلول عليه فى الآية بقوله : ﴿ **على عبدنا** ﴾ .

فأتوا بسورة من إنسان مثله ، وقيل : يعود إلى الأنداد [1] وهو ضعيف . لأن الأنداد جماعة ، والهاء لفرد . وقيل : مثله : التوراة ، والهاء تعود إلى القرآن . والمعنى : فأتوا بسورة من التوراة التى هى مثل القرآن ليعلموا وفاقهما . (وهو) خطاب لليهود .

١٠ - قوله : ﴿ **فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ** ﴾ « ٢ : ٣٤ » ذكر هذه الخلال فى هذه السورة جملة ، ثم ذكرها فى سائر السور مفصلًا ، فقال فى الأعراف [2] : ﴿ **إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** ﴾ « ١١ » . وفى سبحان (الإسراء)[3] : ﴿ **إِلَّا إِبليسَ قالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقتَ طِيناً** ﴾ « ٦١ » . وفى الكهف : ﴿ **إِلَّا إِبلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ** ﴾ [4] « ٥٠ » . وفى طه : ﴿ **إِلَّا إِبليسَ أَبَى** ﴾ « ١١٦ » . وفى صٓ : ﴿ **إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ « ٧٤ » [5] .

١١ - قوله : ﴿ **اسْكُنْ أَنتَ وزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلَا** ﴾« ٣٥ » بالواو . وفى الأعراف : ﴿ **فَكُلَا** ﴾ « ١٩ » بالفاء . ﴿ **اسكن** ﴾ فى الآيتين ليس بأمر بالسكون الذى هو ضد الحركة ، وإنما الذى فى البقرة من السكون الذى معناه الإقامة (وذلك يستدعى زماناً ممتداً) فلم يصح إلَّا بالواو ، لأن المعنى : اجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها . ولو كان الفاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة ، لأن الفاء للتعقيب والترتيب . والذى فى الأعراف من السكنى الذى معناها : اتخاذ الموضع مسكناً ، لأن الله تعالى أخرج إبليس من الجنة بقوله :

---

(١) الأنداد فى قوله تعالى : ﴿ **فلا تجعلوا للّه أنداداً** ﴾ آية ٢٢ من نفس السورة . والأنداد : النظراء والشركاء . ( المراجع )

(٢) فى أ ، ب : فى الفرقان ، والآية فى الأعراف كما أثبتناه وليست فى الفرقان .

(٣) إضافات من المراجع .

(٤) الآية : ﴿ **إلَّا إبليس كان من الجن ففسق عن أن أمر ربه ...** ﴾ [ الكهف : ٥٠ ] .

(٥) لم يذكر المؤلف عِلَّة الإجمال والتفصيل . وأقول : إن هذه قضية تتعلق بالعقيدة ، وكل ما كان من أصول العقيدة فى القرآن بدئ فيه بالكلى ، ثم بالجزئيات ، إلزاماً لصيانة الاعتقاد . وكل ما هو من أصول التشريع جاء تدريجياً ، من الجزئى إلى الكلى .

﴿ **اخرُجْ مِنهَا مَذْءُوماً** ﴾ «١٨» وخاطب آدم فقال : ﴿ **وَيَا آدمُ اسْكُنْ أَنتَ وزَوجُكَ الجنَّـة** ﴾ «١٩» أى : اتخذاها لأنفسكما مسكناً ﴿ **فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا** ﴾ «١٩» ، فكانت الفاء أَوْلَى ؛ لأن اتخاذ المسكن لا يستدعى زماناً ممتداً ، ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه ، بل يقع الأكل عقيبه .

وزاد فى البقـرة ﴿ **رَغَـداً** ﴾ لما زاد فى الخبر تعظيماً بقـوله : ﴿ **وَقُلنَا** ﴾ ، بخلاف سورة الأعراف ، فإن فيها ﴿ **قَالَ** ﴾ . والخطيب ذهب إلى أن ما فى الأعراف خطاب لهما قبل الدخول ، وما فى البقرة بعد الدخول [١] .

١٢ - قوله : ﴿ **اهْبِطُوا منهَا** ﴾ «٣٨» ، كرَّر الأمر بالهبوط [٢] لأن الأول من الجنة والثانى من السماء .

١٣ - قوله : ﴿ **فَمَن تَبِـعَ** ﴾ «٣٨» ، وفى طه : ﴿ **فَمَنِ اتَّبَـعَ** ﴾ «١٢٣» تبع واتبع بمعنى ، وإنما اختار فى طه ﴿ **اتَّبَع** ﴾ موافقة لقوله تعالى : ﴿ **يَـتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ** ﴾ [ طه : ١٠٨ ] .

١٤ - قوله : ﴿ **وَلَا يقبلُ منهَا شَفَاعة وَلَا يؤخـذ منهَا عَـدْل** ﴾ «٤٨» قدم الشفاعة فى هذه الآية وأخَّر العدل ، وقدم العدل فى الآية الأخرى [٣] من هذه السورة وأَخَّر الشفاعة . وإنما قدم الشفاعة قطعاً

---

(١) انظر : ( درة التنزيل وغرة التأويل ص ١١ ) نشر دار الآفاق الجديدة فى بيروت ١٩٧٣م وفيه كذلك أن كل فعل عطف عليه ما يتعلق به تعلق الجواب بالابتداء . وكان الأول مع الثانى بمنزلة الشرط والجزاء ، فالأصل فيه عطف الثانى على الأول بالفاء ، وما لم يكن كذلك فالعطف بالواو . ومن الأول الآية رقم ( ١٩، ١٦١) الأعراف ، و(٥٨) البقرة . ومن الثانى آية البقـرة هنا (٣٥) .

(٢) التكرار فى نفس السورة : ﴿ **وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عـدو ولكم فى الأَرض مُستَقَرٌ ومتَاعٌ إِلَى حِين** ﴾ [ البقرة : ٣٦ ] .
والآية الأخرى : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمَّا يأتينكم منى هـدى فمن تبع هـداى فلا خـوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [ البقرة : ٣٨ ] ( المراجع ) .

(٣) الآية الأخرى فى نفس السورة ﴿ **ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة** ﴾ (١٣٢) ، والعدل هنا : الفـدية .

لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم ، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله[1] ، وأخرها فى الآية الأخرى لأن التقدير فى الآيتين معاً : لا يقبل منها شفاعة فتنفعها تلك الشفاعة ، لأن النفع بعد القبول ، وقدم العدل فى الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدماً فيها .

١٥ - قوله : ﴿ **يُذَبِّحُونَ** ﴾ «٤٩» بغير واو هنا على البدل من ( **يسومونكم** )[2] وفى الأعراف : ﴿ **يُقَتِّلُونَ** ﴾ «١٤١» . وفى إبراهيم : ﴿ **وَيُذَبِّحُونَ** ﴾ «٦» بالواو ، لأن ما فى « هذه السورة » و « الأعراف » من كلام الله تعالى ، فلم يرد تعداد المحن عليهم ، والذى فى « إبراهيم » من كلام موسى ، فعدد المحن عليهم ، وكان مأموراً بذلك فى قوله : ﴿ **وَذَكِّرهُم بِأَيَّامِ اللَّه** ﴾ « ١٤ : ٥» .

١٦ - قوله : ﴿ **وَلَكِن كانُوا أَنفُسَهُم يَظلِمُونَ** ﴾ «٥٧» ههنا ، وفى الأعراف «١٦٠» . وقال فى آل عمران : ﴿ **وَلَكِن أَنفُسَهُم يَظْلِمُونَ** ﴾ « ١١٧» لأن ما فى السورتين إخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا ، وما فى آل عمران مثل[3] .

١٧ - قوله : ﴿ **وَإِذ قُلنَا ادخُلُوا هَذِهِ القَريَة فَكُلُواْ** ﴾ «٥٨» بالفاء ، وفى الأعراف «١٦١» بالواو ، لأن الدخول سريع الانقضاء ، فيتبعه الأكل ، وفى ( الأعراف )[4] : ﴿ **وَإِذ قِيلَ لَهُم اسْكُنُواْ** ﴾ «١٦١»

---

(١) ويرى الإسكافى أن الآية الأولى جمعت على الترتيب كل الأمور التى يدفع بها المكروه عن الأعزة ونفت حدوثها فى الآخرة . فالعرب تدافع عن العزيز بغاية القوة والجلد كما يدفع الوالد عن ولده ، فإذا عجزوا عادوا بوجوه الضراعة والشفاعة ، فإذا عجزوا عرضوا الفداء بالمال أو غيره . وعلى مقتضى التقاليد العربية نفت الآية جدوى تلك التقاليد فى الآخرة ( درة التنزيل ص ١٢ ) .

(٢) قال الزجاج : يسومونكم : يولونكم سوء العذاب . وقال الليث : السوم : أن تجشم إنساناً مشقة أو سوءًا أو ظلماً (لسان العرب ٣١٢/١٢ ) .

(٣) سياق الآيات فى البقرة والأعراف عن بنى إسرائيل ، وكان المخاطبون بها قد ماتوا وانقرضوا قبل البعثة المحمدية . والمثل فى آل عمران قوله : ﴿ **مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم اللّه ولكن أنفسهم يظلمون** ﴾ (١٧٧) .

(٤) سقطت من ب .

المعنى : أقيموا فيها ، وذلك ممتد ، فذكر بالواو ، أى : اجمعوا بين الأكل والسكون ، وزاد فى البقرة ﴿ رَغَدًا ﴾ لأنه سبحانه أسنده إلى ذاته بلفظ التعظم وهو قوله : ﴿ وَإِذْ قُلنَا ﴾ خلاف ما فى الأعراف ، فإن فيه : ﴿ وَإِذْ قِيلَ ﴾ .

وقدم ﴿ وَادخُلوا البَاب سُجَّدًا ﴾ على قوله : ﴿ وَقُولُوا حطة ﴾ فى هذه السورة ، وأَخَّرها فى الأعراف ، لأن السابق فى هذه السورة ﴿ ادخُلُوا ﴾ فَبَيَّنَ كيفية الدخول [1] .

وفى هذه السورة ﴿ خَطَايَاكُم ﴾ «٥٨» بالإجماع . وفى الأعراف ﴿ خَطِيئَاتِكُم ﴾ «١٦١» مختلف [2] لأن خطايا صيغة الجمع الكثير ، ومغفرتها أليق فى الآية بإسناد الفعل إلى نفسه سبحانه .

وفى هذه السورة ﴿ وَسَنَزِيد ﴾ ، وفى الأعراف ﴿ سَنَزِيد ﴾ بغير واو ، لأن اتصالها فى هذه السورة أشد ، لاتفاق اللفظين . واختلفا فى الإعراب لأن اللائق ﴿ سنزيد ﴾ محذوف الواو ليكون استئنافاً لكلام [3] .

---

(١) قال الإسكافى : إن ما أخبر الله به من قصة موسى وبنى إسرائيل وسائر الأنبياء لم يقصد به حكاية الألفاظ بأعيانها ، وإنما قصد اقتصاص معانيها ، وكيف لا يكون كذلك واللغة التى خوطبوا بها غير العربية ، فحكاية اللفظ إذن زائلة ، وتبقى حكاية المعنى ، ومن حكاية المعنى كان مُخْبِرًا بأى لفظ أراد ، وكيف شاء من تقديم وتأخير بحرف لا يدل على الترتيب كالواو . وعلى هذا يقاس نظائره فى القرآن ( درة التنزيل ص ١٧ ) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر ( تُغفَر ) بالتاء مضمومة وفتح الفاء ، والباقون بالنون مفتوحة ( نَغْفِر ) . وقرأ أبو عمرو ( خطاياكم ) على لفظ قضاياكم ، من غير همز ، وابن عامر ( خطيئتكم ) بالهمز وضم التاء من غير ألف ، على التوحيد ، ونافع كذلك إلَّا أنه على الجمع ، والباقون كذلك إلَّا أنهم يكسرون التاء ( التيسير ص ١١٤ ) طبعة إستانبول ١٩٢٠م .

(٣) بيان ذلك : أن ﴿ ادخلوا ﴾ من قوله تعالى فى البقرة : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا ﴾ وقعت فى موضع المفعول من ﴿ قلنا ﴾ . والمفعول يكون مفرداً ، ويكون مكانه جملة ، والفاعل عند البصريين لا يكون إلَّا مفرداً ، ولا تصح الجملة مكانه ، ولذلك يقولون فى قوله فى سورة يوسف : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ (٣٥) . إن فاعل ﴿ بدا ﴾ هو البداء الذى دل عليه الفعل ، لأن الفعل دال على مصدر ، وكذلك قوله تعالى فى السجدة : ﴿ أَوَلَم يهد لهم كم أَهلكنا ﴾ (٢٦) . فاعل ﴿ يهد ﴾ عند البصريين يكون الفاعل فى قوله فى الأعراف : ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا ﴾ مفرداً ، ولا يصح أن يكون جملة ، ولا يجوز أن يكون =

وفى هذه السورة ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَولًا ﴾ «٥٩» . وفى الأعراف «١٦٢» ﴿ ظلمُوا منهُم ﴾ ، (لأن فى الأعراف )[1] ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى ﴾ «١٥٩» ، ولقوله : ﴿ مِنهُم الصَّالِحُونَ وَمنهُم دُون ذَلِكَ ﴾ «٧: ١٦٨» .

وفى هذه السورة ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ «٥٩» ، وفى الأعراف ﴿ فَأَرسَلْنَا ﴾ «١٦٢» ، لأن لفظ الرسول والرسالة كثرت فى الأعراف ، فجاء ذلك وفقاً لما قبله ، وليس كذلك فى سورة البقرة .

١٨ - قوله : ﴿ فَانفَجَرَت ﴾ «٦٠» ، وفى الأعراف : ﴿ فَانبَجَسَت ﴾ «١٦٠» ، لأن الانفجار : انصباب الماء بكثرة . والانبجاس : ظهور الماء . وكان فى هذه السورة ﴿ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾ فذكر بلفظ بليغ . وفى الأعراف : ﴿ كُلُواْ من طَيِّبَاتِ مَا رَزقنَاكُم ﴾ وليس فيه : واشربوا . فلم يبالغ فيه .

١٩ - قوله : ﴿ ويقتُلُونَ النَّبِيِّينَ بغيرِ الحق ﴾ «٦١» فى هذه السورة ، وفى آل عمران : ﴿ ويَقتُلُونَ النَّبيين بِغيرِ حَقٍّ ﴾ «٢١» وفيها وفى النساء : ﴿ وَقَتلِهِم الأَنبِيَاء بغيرِ حَقٍّ ﴾ «١٥٥» ، لأن ما فى البقرة إشارة إلى الحق الذى أذن الله أن تقتل النفس به ، وهو قوله : ﴿ وَلَا تقتُلُواْ النَّفس الَّتى حَرَّمَ اللَّه إلَّا بالحق ﴾ «٦: ١٥١» فكان الأولى أن يذكر[2]

---

= ﴿ اسكنوا ﴾ مكان الفاعل كما كان ﴿ ادخلوا ﴾ مكان المفعول ، فى قوله : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا ﴾ . فعلى هذا يكون القائم مقام الفاعل لفظاً مفرداً ، هو القول ، كما كان البداء فاعل قوله : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ﴾ ، وإذا خرج قوله : ﴿ اسكنوا ﴾ عن كونه فاعلاً وكان لفظه فى موضع الفاعل ، ولم يتعلق بالفعل الذى قبله تعلق الفاعل بفعله ، ولا تعلق المفعول بفعله الواقع فيه فى قوله : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا ﴾ صار كأنه منفصل عن الفعل فى الحكم ، وإن كان متصلاً به فى اللفظ ، وجواب الأمر الذى هو اسكنوا قوله : ﴿ نغفر لكم ﴾ . والجواب فى حكم الابتداء ، ينفصل كما يتصل ، ولا دليل فى اللفظ على انفصاله إلَّا بفصل ما أصله أن يكون متعلقاً به بحرف عطف ، وهو ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ ، بحذف الواو منه ، واستئنافه خبراً مفرداً . (درة التنزيل ص ١٧ ، ١٨ ) .

(١) ما بين الحاصرين سقط من ب .

(٢) فى أ : فكان الأولى الذكر .

معرفاً ، لأنه من الله تعالى ، وما فى آل عمران والنساء نكرة ، أى بغير حق فى معتقدهم ودينهم ، فكان هذا بالتنكير أولى . وجمع النبيين جمع السلامة فى البقرة لموافقة ما بعده من جمعى السلامة وهو ﴿ **النبيين – الصابئين** ﴾ ، وكذلك فى آل عمران ﴿ **إن الذين – وناصرين – ومعرضون** ﴾ بخلاف ﴿ **الأنبياء** ﴾ فى السورتين .

٢٠ – قوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ والَّذِينَ هَادُواْ والنَّصَارَى والصَّابِئِينَ** ﴾ «٦٢» ، وقال فى الحج : ﴿ **والصَّابِئِينَ والنَّصَارَى** ﴾«١٧» ، وقال فى المائدة : ﴿ **والصَّابِئُونَ والنَّصَارَى** ﴾ «٦٩» ، لأن النصارى مقدمون على الصابئين فى الرتبة ، لأنهم أهل كتاب [١] ، فقدمهم فى البقرة . والصابئون مقدمون على النصارى فى الزمان ، لأنهم كانوا قبلهم ، فقدمهم فى الحج . وداعى [٢] فى المائدة ( بين ) [٣] المعنيين ، وقدمهم فى اللفظ ، وأخرهم فى التقدير [٤] ، لأن تقديره والصابئون كذلك [٥] .

قال الشاعر :

فإن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإنى وقيار بها لغريب [٦]

---

(١) فى أ : أهل الكتاب . (٢) فى أ : وراعى .
(٣) سقطت من أ . (٤) فى ب : التقديم .

(٥) **الصابئون** : يزعمون أنهم على دين نوح ، وفى الصحاح : جنس من أهل الكتاب قبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار . وفى التهذيب : يشبه دينهم دين النصارى ، وقبلتهم نحو مهب الجنوب (لسان العرب ١/١٠٧ ) .

وترتيب الطوائف فى المائدة جامع للترتيب بالكتب وبالزمان ، فتقديم الصابئين فيها على النصارى يدل على ترتيب الزمان . ورفعها بين المنصوبات يدل على نية تأخيرهم ، والترتيب بالكتب السماوية . وترتيبهم فى البقرة بالكتب ، فَأَخَّرَ المجوس لأنهم لا كتاب لهم . وترتيبهم فى الحج بالأزمنة ، فقدمهم لأنهم قبل النصارى ، ولم يقصد الترتيب بالكتب ، لأن أكثر المذكورين ممن لا كتب لهم . وأخر الذين أشركوا وإن تقدمت لهم أزمنة لأنهم كانوا أكثر من ابتلى بهم الرسول ﷺ ويحادهم ، فكانوا أهل زمانه أيضاً .

(٦) البيت من قصيدة لضابىء البرجمى . وكان عثمان رضى الله عنه اعتقله ، لأنه كان قَد هَمَّ بقتله . وقيَّار : اسم رجل ، أو فرس ، أو جمل (لسان العرب ٥/١٢٤ ، ١٢٥ ) .

أراد : إنى لغريب وقيار كذلك . فتأمل فيها وفى أمثالها يظهر لك إعجاز القرآن .

٢١ - قوله : ﴿ أَيَّاماً مَعدُودَة ﴾ «٨٠» ،وفى آل عمران : ﴿ أَيَّاماً مَعدُودَات ﴾ «٢٤» ، لأن الأصل فى الجمع إذا كان واحده مذكراً أن يقتصر فى الوصف على التأنيث ، نحو قوله : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرفُوعَةٌ * وأَكوَابٌ مَّوضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبثُوثَةٌ ﴾ «٨٨ : ١٣ - ١٦» ، وقد يأتى : سرر مرفوعات على تقدير : ثلاث سرر مرفوعة ، وتسع سرر مرفوعات ، إلَّا أنه ليس بالأصل ، فجاء فى البقرة على الأصل ، وفى آل عمران على الفرع . وقوله : ﴿ فى أَيَّام مَعدُودَات ﴾ «٢٠٣» . أى : فى ساعات أيام معدودات [١] ، وكذلك ﴿ فى أَيَّامٍ مَعلُومَات ﴾ «٢٢: ٢٨» .

٢٢ - قوله : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ الْـمَوْتَ إِن كُنتُم صَادِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ ﴾ «٩٤، ٩٥» ، وفى الجمعة : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّونَهُ ﴾ «٧» ، لأن دعواهم فى هذه السورة بالغة قاطعة ، وهى : كون الجنة (لهم) [٢] بصفة الخلوص ، فبالغ فى الرد عليهم بلن ، وهو أبلغ [٣] ألفاظ النفى ، ودعواهم فى الجمعة قاصرة مترددة ، وهى زعمهم أنهم أولياء الله [٤] ، فاقتصر على (لا) .

٢٣ - قوله : ﴿ بَل أَكثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ «١٠٠» ، وفى غيرها : ﴿ لا يعقلون - لا يعلمون ﴾ ، لأنهم بين ناقض عهد ، وجاحد حق ، إلَّا القليل ، منهم عبد الله بن سلام وأصحابه ، ولم يأت هذان المعنيان معاً [٥] فى غير هذه السورة .

---

(١) وذلك لأن المراد من (اذكروا) أن يكبروا فى اليوم الواحد فى أدبار الصلوات الخمس ، فحذفت الساعات ، وأقيم المضاف إليها مقامها .

(٢) سقطت من ب .

(٣) فى ب : بما هو أبلغ .

(٤) وذلك فى قوله تعالى : **﴿ قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء للَّه من دون الناس فتمنوا الموت ﴾** [٦] . فدعواهم هنا ليست المطلوب الذى ليس وراءه مطلوب كدعواهم فى البقرة أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس .

(٥) وهما : نقض العهد ، وجحد الحق عند اليهود ، ويوضحه قوله تعالى فى نفس =

٢٤ - قوله : ﴿ وَلئن اتَّبَعْت أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْم﴾ «١٢٠» ، وفيها أيضاً : ﴿ مَن بَعد مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْم ﴾ «١٤٥» فجعل مكان قول ﴿ الَّذِى ﴾ ﴿ مَا ﴾ وزاد فى أوله ﴿ من ﴾ ؛ لأن العلم فى الآية الأولى علم بالكمال ، وليس وراءه علم ، لأن معناه : بعد الذى جاءك من العلم بالله وصفاته ؛ وبأن الهدى هدى الله ، ومعناه : بأن دين الله الإسلام ، وأن القرآن كلام الله ، فكان لفظ ﴿ الذى ﴾ [١] أَلْيَقُ به من لفظ ﴿ ما ﴾ ؛ لأنه فى التعريف أبلغ ، وفى الوصف أقعد ، لأن ﴿ الذى ﴾ تعرفه صلته فلا يتنكر قط ، وتتقدمه أسماء الإشارة ، نحو قوله : ﴿ أَمَّن هَذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُم ﴾ « ٦٧ : ٢٠ » ، ﴿ أَمَّن هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُم ﴾ « ٦٧ : ٢١ » فيكتنف ﴿ الذى ﴾ بيانان :[٢] هما الإشارة قبلها والصلة بعدها ، ويلزمه الألف واللام ، ويثنى ويجمع ، وليس لما شىء من ذلك ، لأنه يتنكر مرة ويتعرف أخرى ، ولا يقع وصفاً لأسماء الإشارة ، ولا تدخله الألف واللام ، ولا يثنى ولا يجمع .

وخص الثانى ﴿ بما ﴾ لأن المعنى : من بعد ما جاءك من العلم بأن قبلة ﴿ اللّه ﴾ [٣] هى الكعبة ، وذلك قليل من كثير من العلم ، وزيدت [٤] معه ﴿ من ﴾ التى لابتداء الغاية ، لأن تقديره : من الوقت الذى جاءك فيه العلم بالقبلة ، لأن القبلة الأولى نسخت بهذه الآية ، وليست الأولى مؤقتة بوقت .

وقال فى سورة الرعد : ﴿ بَعد مَا جَاءَكَ ﴾ «٣٧» . فعبر بلفظ ﴿ ما ﴾ ولم يزد ﴿ من ﴾ لأن العلم هنا هو : الحكم العربى [٥] ، أى :

---

= السورة : ﴿ قالوا سمعنا وعصينا وأُشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ [ ٩٣ ] ، وقوله : ﴿ أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ﴾ [ ١٠٠ ] .

(١) سقطت من أ . (٢) فى أ : بنيانات .

(٣) سقطت من ب . (٤) فى أ : وتزيدت .

(٥) الحكم العربى هو المذكور فى نفس الآية : ﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربيًّا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ﴾ .

القرآن . فكان بعضاً من الأول ، ولم يزد فيه ﴿ من ﴾ لأنه غير مؤقت ، وقريب من معنى القبلة ما فى آل عمران : ﴿ **من بعد ما جاءك من العلم** ﴾ «٦١» فهذا جاء بلفظ ﴿ **ما** ﴾ وزيدت فيه ﴿ **من** ﴾[١] .

٢٥ - قوله : ﴿ **واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً** ﴾ «٤٨ ، ٧ و ١٢٢، ١٢٣» هذه الآية والتى قبلها متكررتان ، وإنما كررت لأن كل واحدة منهما صادفت معصية تقتضى تنبيهاً ووعظاً ؛ لأن كل واحدة وقعت فى غير وقت الأخرى . والمعصية الأولى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** ﴾ «٤٤» ، والثانية : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾ «١٢٠» .

٢٦ - قوله : ﴿ **رب اجعل هذا بلداً آمناً** ﴾ «١٢٦» ، وفى إبراهيم : ﴿ **هذا البلد آمناً** ﴾ «٣٥» ، لأن ﴿ **هذا** ﴾[٢] هنا إشارة إلى المذكور فى قوله : ﴿ **بواد غير ذى زرع** ﴾ «٣٧» قبل بناء الكعبة ، وفى إبراهيم إشارة إلى البلد بعد الكعبة[٣] . فيكون ﴿ **بلداً** ﴾ فى هذه السورة المفعول الثانى ، و﴿ **آمناً** ﴾ صفته[٤] ﴿ **وهذا البلد** ﴾ فى إبراهيم المفعول الأول ، و﴿ **آمناً** ﴾ المفعول الثانى[٥] .

---

(١) ومما يبين الأغراض المذكورة : ما اقترن بكل منها من الوعيد . ففى الآية الأولى منعه الله بعلمه عن الكفر فى قوله : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى** ﴾ ، وختمها بقوله : ﴿ **ما لك من الله من ولى ولا نصير** ﴾ . وفى آية الرعد كان العلم مانعاً من ترك شطر القرآن ، فكانت خاتمها : ﴿ **ما لك من الله من ولى ولا واق** ﴾ . أما اتباع أهوائهم فى أمر القبلة فلما كان مما يجوز نسخه كان الوعيد عليه أخف : ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذًا لمن الظالمين** ﴾ .

(درة التنزيل ص ٢٨ ، ٢٩ ) .

(٢) سقطت من أ . (٣) فى ب : بعد البناء .

(٤) فى أ : نعته . (٥) ما بين الحاصرين سقط من أ .

وفى ( درة التنزيل ص ٢٩ ) : هذا هو المفعول الأول ، والبلد عطف بيان على مذهب سيبويه ، وصفة على مذهب أبى العباس المبرد ، وآمناً مفعول ثان .

وقيل : لأن النكرة إذا تكررت صارت معرفة [1] ، وقيل : تقديره في البقرة : البلد بلداً آمناً . فحذف اكتفاء بالإشارة ، فتكون الآيتان سواء [2] .

٢٧ - قوله : ﴿ **وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا** ﴾ «١٣٦» فى هذه السورة . وفى آل عمران ﴿ **عَلَيْنَا** ﴾ «٨٤» ، لأن ﴿ **إلى** ﴾ للانتهاء إلى الشىء من أى جهة كانت ، والكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أممهم جميعاً . والخطاب فى هذه السورة لهذه الأمة [3] ، لقوله تعالى : ﴿ **قُولُوا** ﴾ «١٣٦» فلم يصح إلّا ﴿ **إلى** ﴾ و ﴿ **عَلَى** ﴾ مختص بجانب الفوق [4] ، وهو مختص بالأنبياء ، لأن الكتب منزلة عليهم ، لا شركة للأمة فيها .

وفى آل عمران ﴿ **قُل** ﴾ «٨٤» وهو مختص بالنبى ﷺ دون أمته ، فكان الذى يليق به ﴿ **عَلَى** ﴾ .

وزاد فى هذه السورة : ﴿ **وَمَا أُوتى** ﴾ . وحذف من آل عمران ، لأن فى آل عمران قد تقدم ذكر الأنبياء حيث قال : ﴿ **وَإِذ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لما آتيتُكم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ** ﴾ «٨١» [5] .

٢٨ - قوله : ﴿ **وَمِن حَيثُ خَرَجْت** ﴾ «١٤٩» هذه الآية مكررة ثلاث مرات . قيل : إن الأولى لنسخ القبلة ، والثانية للسبب [6] ، وهو قوله : ﴿ **وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ** ﴾ «١٤٩» ، والثالثة للعلة ، وهو قوله : ﴿ **لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيكُم حُجَّةٌ** ﴾ «١٥٠» ، وقيل : الأولى فى مسجد المدينة ، والثانية خارج المسجد ، والثالثة خارج البلد .

---

(١) **قال الإسكافى** : هذا التعليل ليس بشىء ، وليس هذا مثالًا له ، ولا هذا مكانه . ( درة التنزيل ص ٣٠ ) .

(٢) ويكون المراد فى الآيتين الدعاء للبلد بالأمن . كما تقول : كن رجلًا كريماً ، فليس المراد الأمر بأن يكون المخاطب رجلًا ، وإنما المراد : بأن يكون كريماً .

(٣) فى ب : للأمة .　　　(٤) فى أ : الفوت : تحريف .

(٥) يعنى : لأن قوله : ﴿ **لما آتيتكم من كتاب** ﴾ هو معنى : ﴿ **وما أوتى النبيُّون** ﴾ ومع هذا فقد جاء بعده : ﴿ **وما أوتى موسى وعيسى** ﴾ . فكان هذا مغنياً عن تكرار الإيتاء للنبيين .

(٦) فى : السبب .

وقيل : (في)[1] الآيات خروجان : خروج إلى مكان ترى فيه القبلة ، وخروج إلى مكان لا ترى ، أى : الحالتان فيه سواء .

قلت : (إِنَّمَا)[2] كرر لأن المراد بذلك : الحال ، والمكان ، والزمان ، وقلت فى الآية الأولى : ﴿ **وَمِن حَيثُ خَرَجت** ﴾ وليس فيها ﴿ **وحيثما كُنتُم** ﴾ فجمع فى الآية الثالثة بين قوله : ﴿**حيث خرجت - وحيثما كنتم** ﴾ ، ليعلم أن النبى ﷺ والمؤمنين فى ذلك سواء .

٢٩ - قوله : ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ** ﴾ «١٦٠» ليس فى هذه ﴿ **من بَعد ذَلِك** ﴾ . وفى غيرها : ﴿ **مِنْ بَعد ذَلِكَ** ﴾ «٣: ٨٩» لأن قبله هنا : ﴿ **من بَعد مَا بَيَّنَّاهُ** ﴾ «١٥٩» فلو أعاد الْتَبَسَ[3] .

٣٠ - قوله : ﴿ **لَآيَاتٍ لِّقَومٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ «١٦٤» خص العقل بالذكر لأن به[4] يتَوَصَّل إلى معرفة الآيات . ومثله فى الرعد «٤» ، النحل «١٢» ، والنور «٦١» ، والروم «٢٤» .

٣١ - قوله : ﴿ **مَا أَلْفَيْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا** ﴾ «١٧٠» فى هذه السورة ، وفى المائدة «١٠٤» ، ولقمان «٢١» : ﴿ **مَا وَجَدنَا** ﴾ لأن ألفيت يتعدى إلى مفعولين ، تقول : ألفيت زيداً قائماً ، وألفيت عمراً على كذا . ووجدت يتعدى مرة إلى مفعول واحد ، تقول : وجدت الضالة ، ومرة إلى مفعولين ، تقول : وجدت زيدًا جالساً . فهو مشترك . فكان الموضع الأول باللفظ الأخص[5] أولى ، لأن غيره إذا وقع موقعه فى الثانى والثالث علم (أَنَّهُ)[6] بمعناه .

---

(١) سقطت من ب . (٢) سقطت من ب .

(٣) وجه الالتباس هو عدم وضوح متعلق قوله : ﴿ **من بعد ذلك** ﴾ . هل هو متعلق بقوله : ﴿ **يكتمون ما أنزلنا** ﴾ [ ١٥٩ ] أو متعلق بقوله : ﴿ **تابوا وأصلحوا وبَيَّنُوا** ﴾ [ ١٦٠ ] . والمراد هنا الكتم بعد البيان ، والمراد من الآيات التى ذكر فيها ﴿ **من بعد ذلك** ﴾ التوبة بعد الكتم .

(٤) فى ب : لأنه يتوصل . (٥) فى ب : بلفظ الأخص .

(٦) سقطت من ب .

٣٢ – قوله : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ﴾ «١٧٠» ، وفى المائدة ﴿ لَا يعلَمُونَ ﴾ «١٠٤» ، لأن العلم أبلغ درجة من العقل ، ولهذا جاز وصف الله به ، ولم يجز وصفه بالعقل [١] ، فكانت دعواهم فى المائدة أبلغ ، لقولهم : ﴿ حَسْبُنَا مَا وجَدْنَا عَليهِ آبَاءَنَا ﴾ «١٠٤» . فادعوا النهاية بلفظ ﴿ حسبنا ﴾ . فنفى ذلك بالعلم وهو النهاية . وقال فى البقرة : ﴿ بَل نَتَّبِـع مَا أَلْفَينا عليهِ آبَاءَنَا ﴾ «١٧٠» ، ولم تكن النهاية [٢] فنفى بما هو دون العلم ؛ لتكون كل دعوى منفية بما يلائمها ، والله أعلم .

٣٣ – قوله : ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيرِ اللَّـه ﴾ «١٧٣» . قدم ﴿ بـه ﴾ فى هذه السورة ، وأخرها فى المائدة «٣» ، والأنعام «١٤٥» ، والنحل «١١٥» ، لأن تقديم الباء [٣] الأصل ، فإنها تجرى مجرى الهمزة والتشديد فى التعدى ، فكانت كحرف من الفعل ، فكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ، ليعلم ما يقتضيه اللفظ . ثم قدم فيما سواها ما هو المستنكر [٤] وهو الذبح لغير الله ، وتقديم ما هو الغرض أولى ، ولهـذا جاز تقـديم المفعول على الفاعل ، والحـال على ذى الحـال ، والظرف على العامل فيه ، إذا كان ذلك أكثر للغرض فى الإخبار .

٣٤ – قوله فى هذه السورة : ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيهِ ﴾ «١٧٣» وفى السور الثلاث [٥] بحذفها ، لأنه لما قال فى الموضع الأول : ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيـهِ ﴾ صريحاً كان نفى الإثم [٦] فى غيره تضميناً ؛ لأن قوله :

---

(١) لا يجوز وصف الله بالعقل ، لأن يعقل معناه : يحصر الشيء بإدراكه له عما لا يدركه ، ويقيده تمييزه له عن غيره مما لا يدركه ، أو معناه : حبس النفس عما تدعو إليه الشهوات . وليس فى الوجود شيء لا يدركه الله ، وليس له شهوة فيحتبس عنها (درة التنزيل ص ٣٩ ) .

(٢) لأن قولهم : ﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ لا يمنع أن يرجعوا عن اتباعهم آباءهم . أما قولهم : ﴿ حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ فيفيد انتهاءهم إلى عقيدة آبائهم ، واستقرارهم عليها .

(٣) فى ب : لأن فى تقديم الباء فى الأصول ، وما أثبتناه أصح .

(٤) فى أ : المتكثر . وفى ب : المستكثر . والسياق يقتضى ما أثبتناه .

(٥) السور الثلاث : (الأنعام آية ١٤٥ ) ، و(المائدة آية ٣ ) ، و(النحل آية ١١٥ ) .

(٦) فى الأصل : كان النفى ، وما أثبتناه أبعد من اللبس .

﴿ **غفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ يدل على أنه لا إثم عليه .

٣٥ - قوله : ﴿ **إنَّ اللّه غفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ «١٧٣» فى هذه السورة ، خلاف سورة الأنعام فإن فيها : ﴿ **فَإِنَّ رَبَّكَ غفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ «١٤٥» ، لأن لفظ الرب تكرر فى الأنعام مرات ، ولأن فى الأنعام قوله : ﴿ **وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ** ﴾ «١٤١» الآية . وفيها ذكر الحبوب والثمار ، وأتبعها بذكر الحيوان ، من الضأن ، والمعز ، والإبل ، وبها تربية الأجسام ، فكان ذكر الرب فيها أليق [١] .

٣٦ - قوله : ﴿ **إنَّ الَّذِينَ يَكتمُونَ مَا أنزلَ اللّه مِنَ الكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِم إلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّه يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِم وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ «١٧٤» الآية فى السورة على هذا النسق ، وفى آل عمران : ﴿ **أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُم فى الْآخِرَة وَلَا يُكَلِّمُهُم اللَّه وَلَا يَنظُرُ إِلَيهم يَومَ الْقِيَامَة وَلَا يُزَكِّيهِم وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ «٧٧» لأن المنكر فى هذه السورة أكثر فالمتوعد [٢] فيها أكثر [٣]، وإن شئت قلت : زاد فى آل عمران : ﴿ **وَلَا ينظُر إِلَيهم** ﴾

---

(١) لم يذكر المؤلف سر اختصاص آية البقرة وآية النحل بقوله تعالى : ﴿ **إن اللّه** ﴾ ، ﴿ **فإن اللّه** ﴾ . والسر أنه تقدم على الآيتين الحديث عن الألوهية وما يختص بها . فتقدم فى البقرة: ﴿ **يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا للّه إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ ، وختم بقوله : ﴿ **إنما حرم عليكم** ﴾ ... كذا وكذا . فتقدم لفظ ﴿ **اللّه** ﴾ وتقدم التحريم ولا يملكه إلّا الله ، والعبادة وهى واجبة لله . وفى النحل : ﴿ **فكلوا مما رزقكم اللّه حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله عليكم إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ فأشبه ما فى البقرة . وكان لفظ ﴿ **اللّه** ﴾ أولى وأخص بالآيتين . وانظر (درة التنزيل ص ٤٢ ) .

(٢) فى أ : فالمتوكل .

(٣) كثرة المنكر فى آية البقرة بكثرة الذنوب التى ارتكبوها . فقال تعالى فى صدر الآية : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل اللّه من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ...** ﴾ الآية . فسجل عليهم : أنهم خالفوا الله فى أمره ، ونقضوا ما عاهدهم عليه ، فى قوله تعالى فى آل عمران : ﴿ **وإذ أخذ اللّه ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ...** ﴾ الآية [ ١٨٧ ] . فخالفوا وارتكبوا ما حرم الله ثم آثروا القليل من الدنيا على =

فى مقابلة : ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونهم إِلَّا النَّار ﴾ .

٣٧ - قوله فى آية الوصية : ﴿ إِنَّ اللَّه سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ « ١٨١ » خص السمع بالذكر لما فى الآية من قوله : ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعد ما سَمِعَهُ ﴾ ، ليكون مطابقاً . وقال فى الآية الأخرى بعدها : ﴿ إِنَّ اللَّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ «١٨٢» لقوله قبله : ﴿ فَلا إِثْمَ عَلَيهِ ﴾ فهو مطابق معنى له .

٣٨ - قوله : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَو عَلَى سَفَرٍ ﴾ «١٨٤» قيد بقوله : ﴿ مِنكُم ﴾ ، وكذلك : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَو بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ﴾ «١٩٦» ، ولم يقيد [(١)] فى قوله : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَو عَلَى سَفرٍ ﴾ «١٨٥» ، اكتفاء [(٢)] بقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْر فَلْيَصُمْهُ ﴾ «١٨٥» لاتصاله به .

٣٩ - قوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقرَبُوهَا ﴾ «١٨٧» ، وقال بعده : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ «٢٢٩» ، لأن الحد الأول نهى وهو قوله : ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُم عَاكِفُونَ فى المَسَاجِد ﴾ «١٨٧» ، وما كان من الحدود نهياً أُمِرَ بترك المقاربة ، والحد الثانى أَمْرٌ ، وهو بيان عدد الطلاق [(٣)] بخلاف ما كان عليه العرب من المراجعة بعد الطلاق من غير عدد وما كان أمراً أمر بترك المجاوزة وهو الاعتداء [(٤)] .

٤٠ - قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّة ﴾ «١٨٩» : جميع ما جاء

---

= العظيم من عهد الله . فكان غلظ الوعيد لذلك أعظم . أما فى آل عمران فلم يذكر فى صدر الآية إلا بعض ما فى آية البقرة ، إذ قال : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد اللّه وأيمانهم ثمناً قليلًا** ... ﴾ الآية . انظر : ( درة التنزيل ٤٤ ، ٤٥ ] .

(١) فى ب : ولم يقيده . (٢) فى ب : اكتفى بقوله .

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿ **الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود اللّه فلا تعتدوها** ﴾ [ ٢٢٩ ] .

(٤) **قال الإسكافى** : الحدود ضربان : حد هو منع ارتكاب المحظور ، وحد فاصل بين الحلال والحرام . فالأول : ينهى عن مقاربته ، والثانى : ينهى عن مجاوزته . ( درة التنزيل ص ٣٦ ) .

فى القرآن من السؤال وَقَعَ عَقِبه الجواب بغير الفاء ، إلّا فى قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى ﴾ «٢٠ : ١٠٥» ، فإنه أجيب بالفاء ؛ لأن الأجوبة فى الجميع كانت بعد السؤال ، وفى طه قبل ( وقوع ) السؤال ، فكأنه قيل : إن سئلت عن الجبال فقل : ينسفها ربى .

٤١ - قوله : ﴿ وَيَكُونَ الدِّين لله ﴾ «١٩٣» فى هذه السورة ، وفى الأنفال : ﴿ وَيَكُونَ الدِّين كله ﴾ «٣٩» ، لأن القتال فى هذه السورة مع أهل مكة ، وفى الأنفال مع جميع الكفار ، فقيده بقوله : ﴿ كله ﴾ .

٤٢ - قوله : ﴿ أَم حَسِبتُم أَن تدْخُلُوا الجنَّةَ ولما يَأْتِكُم مَثَل الَّذِينَ خَلَوا مِن قبلكُم ﴾ «٢١٤» . وقال فى آل عمران : ﴿ أم حَسِبتُم أن تَدْخُلُوا الجنَّةَ ولما يَعلَم اللَّه الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُم ويَعْلَم الصَّابرِينَ ﴾ «١٤٢» .

وقال فى التوبة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُم أَن تُتركُوا وَلَمَّا يَعْلَم اللَّه الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُم ... ﴾ الآية «١٦» ، الخطيب أطنب فى هذه الآيات ، ومحصول كلامه : أن الأول : للنبى ﷺ والمؤمنين ، والثانى : للمؤمنين ، والثالث : للمخاطبين جميعاً [١] .

٤٣ - قوله : ﴿ لَعَلَّكُم تَتَفَكَّرُونَ * فى الدُّنيَا والآخِرَة ﴾ «٢١٩، ٢٢٠» ، وفى آخر السورة : ﴿ لَعَلَّكُم تَتَفَكَّرُونَ ﴾ «٢٦٦» ، ومثله فى الأنعام [٢] ، لأنه لما بين ﴿ فى ﴾ [٣] الأول مفعول التفكر وهو قوله : ﴿ فى الدُّنيَا والآخِرَة ﴾ حذفه مما بعده للعلم به . وقيل : ﴿ فى ﴾ متعلقه بقوله : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّه لَكُم الْآيَاتِ لَعَلَّكُم تَتَفَكَّرُون ﴾ «٢١٩» .

---

(١) انظر : ( الإسكافى ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ) .
(٢) الذى فى الأنعام : ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ [ ٥٠ ] و﴿ لعلكم تعقلون ﴾ [ ١٥٢ ] وليس فيها ﴿ لعلكم تتفكرون ﴾ .
(٣) سقطت من ب .

٤٤ - قوله : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ ﴾ «٢٢١» بفتح التاء ، والثانى بضمها [١] ، لأن الأول : من نكحت ، والثانى : من أنكحت ، وهو يتعدى إلى مفعولين ( والمفعول ) [٢] الأول فى الآية : ﴿ المشركين ﴾ والثانى محذوف وهو ﴿ المؤمنات ﴾ أى : لا تنكحوا المشركين النساء المؤمنات حتى يؤمنوا .

٤٥ - قوله : ﴿ وَلَا تُمسكُوهُنَّ ﴾ «٢٣١» [٣] أجمعوا على تخفيفه إلَّا شاذاً [٤] وما فى غير هذه السورة قرئ بالوجهين ، لأن قبله ﴿ فَأَمْسكُوهُنَّ ﴾ «٢٣١» ، وقبل ذلك ﴿ فَإِمْسَاك ﴾ «٢٢٩» فاقتضى ذلك التخفيف .

٤٦ - قوله : ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ ﴾ «٢٣٢» ، وفى الطلاق : ﴿ ذَلِكُم يُوعظ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِن ... ﴾ «٢» الكاف فى ﴿ ذلك ﴾ [٥] لمجرد الخطاب لا محل له [٦] من الإعراب ، فجاز الاختصار على التوحيد ، وجاز إجراؤه على عدد المخاطبين ، ومثله : ﴿ عَفَونَا عَنكُم مِن بَعد ذَلِك ﴾ «٥٢» ، وقيل : حيث جاء موحداً [٧] فالخطاب للنبى ﷺ ، وخص بالتوحيد فى هذه السورة لقوله : ﴿ مَن كَانَ مِنكُم ﴾ وجمع (فى) [٨] الطلاق لما ( لم ) [٩] يكن بعده ﴿ مِنكُم ﴾ [١٠] .

٤٧ - قوله : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيكُم فِيمَا فَعَلْنَ فى أَنفُسهنَّ

---

(١) وهو فى نفس الآية : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا المشركين حتى يؤمنوا ﴾ [ ٢٢١ ] بضم التاء .
(٢) سقطت من أ .
(٣) فى ب : تمسوهم . خطأ .
(٤) القراءة الشاذة عن ابن الزبير ( ولا تماسكوهن ) ( مختصر شواذ القراءات لابن خالويه ) نشر برجشتراسر . الرحمانية بمصر ١٩٣٤م .
(٥) فى أ : ذلكم .
(٦) فى ب : لها .
(٧) فى أ : بواحد .
(٨) ، (٩) سقطتا من ب .
(١٠) انظر : ( القول الأخير عند الإسكافى ص ٥١ ) .

بِالْمَعْرُوفِ ﴾ «٢٣٤» ، وقال فى (الآية )[1] الأخرى : ﴿ من معروف ﴾ «٢٤٠» ، لأن تقدير الأول [ فيما فعلن بأمر الله وهو المعروف ، والثانى ][2] فيما فعلن فى أنفسهن فعلًا[3] من أفعالهن معروفاً ، أى : جاز فعله شرعاً[4] .

**قال أبو مسلم حاكياً عن الخطيب** : إنما جاء المعروف الأول معرَّف اللفظ لأن المعنى : بالوجه المعروف من الشرع لهن ، وهو الوجه الذى دل الله عليه وأبانه . والثانى : كان وجهاً من الوجوه التى لهن أن يأتينه ، فأخرج مخرج النكرة لذلك .

**قلت** : النكرة إذا تكررت صارت معرفة ، فإن قيل : كيف يصح ما قلت والأول معرفة والثانى نكرة ؟ وما ذهبت إليه يقتضى ضد هذا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ** ﴾ «٧٣: ١٥، ١١٦» ، فالجواب : أن هذه الآية بإجماع من المفسرين مقدمة على تلك الآية فى النزول ، وإن وقعت متأخرة فى التلاوة . ولهذا نظير فى القرآن فى موضع آخر أو موضعين وقد سبق بيانه[5] ، وأجمعوا أيضاً على أن هذه الآية منسوخة بتلك الآية[6] ، والمنسوخ سابق على الناسخ ضرورة ، فصح ما ذكرت أن قوله :

---

(١) سقطت من ب .
(٢) ما بين الحاصرين سقط من أ .
(٣) فى أ : ( فعل ) .
(٤) يفهم ذلك من صدر آية : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف** ﴾ . أى : لا جناح عليكم فى أن يفعلن فى أنفسهن فعلًا هو بأمر الله وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة فصار المعروف هنا محدداً مشهوراً . وفى الآية الثانية تخييراً لهن بين أمرين مشروعين هما : القعود ، والزواج . وهما مشروعان ، فلم يكن المعروف الثانى إلا وجهاً من الوجوه المشروعة غير محدد ، فلهذا خرج مخرج النكرة .
(٥) انظر : الفقرة [ ٢٦ ] سورة البقرة .
(٦) أخرج البخارى عن الزبير أنه قال لعثمان : ﴿ **والذين يتوفون منكم ...** ﴾ الآية . قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها ؟ فقال عثمان : يابن أخى ، لا أغير شيئاً من مكانه .
انظر : (البخارى ، هامش فتح البارى ٣٣/٨ طبع الهند ، كذلك انظر الناسخ والمنسوخ للنحاس ٧٢ - ٧ ط الخانجى ) .

بالمعروف ، هو ما ذكر فى قوله : من معروف . فتأمل فيه فإن هذا دليل على إعجاز القرآن [1] .

٤٨ - قوله : ﴿ وَلَو شَاءَ الله ما اقْتَتَلُوا ﴾ «٢٥٣» . كَرَّر هنا تأكيداً . وقيل : ليس بتكرار ، لأن **الأول** : للجماعة ، **والثانى** : للمؤمنين . وقيل : كَرَّر تكذيباً لمن زعم (أن ذلك) [2] لم يكن بمشيئة الله تعالى .

٤٩ - قوله : ﴿ وَيُكَفِّر عَنْكُم مِن سَيِّئَاتِكُم ﴾ «٢٧١» فى هذه السورة بزيادة ﴿ من ﴾ موافقة لما بعدها ، لأن بعدها ثلاث آيات فيها ﴿ من ﴾ على التوالى وهى قوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن خَيرٍ ﴾ ثلاث مرات [3] .

٥٠ - قوله : ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآء ﴾ «٢٨٤» . (يغفر) مقدم فى هذه السورة وغيرها ، إلَّا فى المائدة فإن فيها : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآء وَيَغْفِر ﴾ «٤٠» ، لأنها نزلت بعدها فى حق السارق والسارقة [4] ، وعذابهما يقع فى الدنيا ، فقدم لفظ العذاب ، وفى غيرها

---

(١) الآية دليل على أن القرآن من عند الله ، فلو كان من عند النبى ﷺ لوضع الآية الثانية أولا بمقتضى كونها منسوخة ، وبمقتضى المتعارف من لغة العرب حتى تتعرف النكرة بتكرارها حسب قواعد اللغة . ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن يتقدم الناسخ فى الترتيب باعتباره حكماً يجب العمل به ، على الفور ، فهو مقدم لذلك ، وأن يتأخر المنسوخ باعتباره مستبعداً من ناحية العمل به ، ومع ذلك يأخذ حكم المقدم باعتباره سبقه فى النزول ، فيتعرف بالتكرار وإن لم يكن جارياً على الترتيب المتعارف فى اللغة ظاهراً ، وليس هذا صنيع إنسان أمي ، بل هو الله منزل الكتاب .

(٢) سقطت من ب . وهو يقصد قوله تعالى : ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد** ﴾ ( المراجع ) .

(٣) كررت ﴿ **من** ﴾ ثلاث مرات فى قوله تعالى : ﴿ **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ [ ٢٧٢ ] وكررت كذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم** ﴾ [ ٢٧٣ ] .

(٤) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله** ﴾ [ ٣٨ ] . وتلك المراعاة الدقيقة للمعانى من دقائق إعجاز القرآن ، فالكلام البشرى يكثر فيه التجوز ونسيان السوابق واللواحق ، دون كلام الحكيم سبحانه وتعالى .

( قدم لفظ ) [1] المغفرة رحمة منه تعالى ، وترغيباً للعباد فى المسارعة إلى موجبات [2] المغفرة ( جعلنا الله تعالى منهم بِمَنِّهِ وَكَرَمِه ) [3] .

## سورة آل عمران

٥١ – قوله تعالى : ﴿ **إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾ «٩» أول السورة ، وفى آخرها : ﴿ **إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾ «١٩٤» ، فعدل من الخطاب إلى لفظ الغيبة فى أول السورة ، واستمر على الخطاب فى آخرها ، لأن ما فى أول السورة لا يتصل بالكلام الأول كاتصال ما فى آخرها ، فإن اتصال قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَاد** ﴾ «٩» بقوله : ﴿ **إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَومٍ لَّا رَيبَ فِيهِ** ﴾ «٩» معنوى ، واتصال قوله : ﴿ **إِنَّكَ لَا تُخلفُ المِيعَاد** ﴾ «١٩٤» بقوله : ﴿ **رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا** ﴾ «١٩٤» لفظى ومعنوى جميعاً لتقدم لفظ الوعد ، ( ولا يجوز أن يكون الأول استئنافاً ) [3] ، والآخر من تمام الكلام [4] .

٥٢ – قوله : ﴿ **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَونَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِم كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ** ﴾ «١١» ، كان القياس : فأخذناهم و لكن لما عَدَلَ فى الآية الأولى إلى قوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ المِيعَاد** ﴾ «٩» عَدَلَ فى هذه الآية أيضاً ، لتكون الآياتُ على منهج واحد .

٥٣ – قوله : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُو** ﴾ «١٨» ، ثُمَّ كَرَّرَ فى هذه الآية فقال : ﴿ **لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُو** ﴾ ، لأن الأول جرى مجرى الشهادة وأعاده ليجرى الثانى مجرى الحكم بصحة ما شهد به الشهود .

---

(١) سقطت من أ .
(٢) فى أ : إلى مرضاته والمغفرة .
(٣) ما بين الحاصرين سقط من ب .
(٤) لأن جمع الناس ليوم لا ريب فيه يقتضى تنفيذ المواعيد .

٥٤ - قوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُم اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ «٢٨» ، كَرَّره مرتين [١] لأنه وعيد عطف عليه وعيد آخر فى الآية الأولى ، فإن قوله : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ المصِيرُ ﴾ معناه : مصيركم إلى الله ، والعذاب مُعَدٌّ لديه فاستدركه [٢] فى الآية الثانية بوعد ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَاد ﴾ «٣٠» والرأفة أشد من الرحمة . وقيل : مِن رأفته تحذيره .

٥٥ - قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرأَتِي عَاقِر ﴾ «٤٠» . قَدَّم فى هذه السورة ذكر الكِبَر ، وأَخَّرُ ذِكْر المرأة . وقال فى سورة مريم : ﴿ وَكَانَت امرَأَتِي عَاقراً وَقَد بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عتيًا ﴾ «٨» فقدم ذكر المرأة ، لأن فى مريم قد تقدم ذكر الكبر فى قوله : ﴿ وَهَن الْعَظْمُ مِنِّى ﴾ «٤» وتأخر ذكر المرأة فى قوله : ﴿ وَإِنِّى خِفْت الْـمَوَالِي مِن وَرَائِي وَكَانَت امرَأَتِي عَاقراً ﴾ «٥» ثم أعاد ذكرها فأخَّر ذكر الكبر ليوافق ﴿ عتيًا ﴾ ما بعده من الآيات وهى : ﴿ سَوِيًّا «١٠» وَعشيًا «١١» وَصَبيًا «١٢» ﴾ [٣] .

٥٦ - قوله : ﴿ قَالَت رَبِّ أَنَّىٰ يَكُون لِي وَلَد ﴾ «٤٧» . وفى مريم : ﴿ قَالَت أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ «٢٠» ، لأن فى هذه السورة تقدم ذكر المسيح ، وهو ولدها [٤] ، وفى مريم ذكر الغلام ، حيث قال : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيًا ﴾ «١٩» .

٥٧ - قوله : ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ «٤٩» . وفى المائدة : ﴿ فَتَنفخ فِيهَا ﴾ «١١٠» . قيل : الضمير فى هذه السورة يعود إلى الطير . وقيل :

---

(١) المرة الثانية قوله تعالى : ﴿ ويحذركم اللَّه نفسه واللَّه رءوف بالعباد ﴾ [ ٣٠ ] .

(٢) فى أ : فاستدرك .

(٣) فى أ ، ب : عتيًا ، وصلياً ، وليس كذلك ما بعد ﴿ عتيًا ﴾ ويلاحظ أن المؤلف ترك (شيئاً - ٩ ) .

(٤) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن اللَّه يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح ﴾ [ ٤٥ ] .

إلى الطين . وقيل : إلى المهيأ[(١)] . وقيل : إلى الكاف[(٢)] فإنه فى معنى : مثل ، وفى المائدة يعود إلى الهيئة . وهذا جواب التذكير والتأنيث ، لا جواب التخصيص ، وإنما الكلام وقع فى التخصيص ، وهل يجوز أن يكون كل واحد منهما مكان الآخر أم لا ؟ فالجواب أن يقال : فى هذه السورة إخبار قبل الفعل فَوَحَّدَه ، وفى المائدة خطاب من الله له يوم القيامة وقد تقدم[(٣)] من عيسى ــ عليه السلام ــ الفعل مرات ، والطير صالح للواحد وصالح للجميع .

٥٨ - قوله : ﴿ **بِإِذْنِ اللَّه** ﴾ «٤٩» . ذكر فى هذه الآية مرتين . وقال فى المائدة : ﴿ **بِإِذْنِي** ﴾ أربع مرات[(٤)] ، لأن ما فى هذه السورة كلام عيسى ، فما يتصور أن يكون من فعل البشر أضافه إلى نفسه ، وهو : الخلق الذى معناه التقدير ، والنفخ ( الذى )[(٥)] هو : إخراج الريح من الفم . وما يتصور إضافته إلى الله تعالى ( أضافه إليه )[(٦)] وهو قوله : ﴿ **فَيَكُون طيراً بِإِذْنِ اللَّه وَأُبرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَص** ﴾ بما يكون فى طوق البشر ، فإن الأَكْمَهَ[(٧)] عند بعض المفسرين : الأعمش ، وعند بعضهم : الأعشى ، وعند بعضهم : الذى يولد أعمى ، وإحياء الموتى من فعل الله فأضافه إليه .

وما فى المائدة من كلام الله سبحانه وتعالى فأضاف جميع ذلك إلى صنعه إظهاراً لعجز البشر ، ولأن فعل العبد[(٨)] مخلوق لله تعالى .

وقيل : ﴿ **بِإِذْنِ اللَّه** ﴾ يعود إلى الأفعال الثلاثة[(٩)] ، وكذلك

---

(١) فى أ : المهيىء ، خطأ . والمراد بالمهيأ قوله تعالى : ﴿ **كهيئة الطير** ﴾ .
(٢) يعنى فى قوله : ﴿ **كهيئة الطير** ﴾ .
(٣) فى ب : سبق .
(٤) المرات الأربع فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرئ الأكْمَهَ والأبْرَصَ بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى** ﴾[ المائدة: ١١٠] .
(٥) سقطت من ب .
(٦) ما بين الحاصرين سقط من ب
(٧) فى ب : الكمه ، والبرص .
(٨) فى ب : وأن فعل العبد .
(٩) الأفعال الثلاثة فى آية آل عمران هى : ﴿ **أخلق - أنفخ - فيكون طيراً** ﴾ .

الثانى يعود إلى الثلاثة الأخرى[1] .

٥٩ - قوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ**[2] **رَبِّى وَرَبُّكُم** ﴾ «٥١» ، وكذلك فى مريم : ﴿ **رَبِّى وَرَبكُم** ﴾ «٣٦» . وفى الزخرف فى هذه القصة : ﴿ **إِنَّ اللَّه هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُم** ﴾ «٦٤» بزيادة ﴿ **هو** ﴾ .

**قال الشيخ** : إذا قلت : زيد هو قائم ، فيحتمل أن يكون تقديره : وعمر قائم ، فإذا قلت : زيد هو القائم ، خصصت القيام به ، فهو كذلك فى الآية ، وهذا مثاله ، لأن ( هو ) يذكر فى مثل هذه المواضع إعلاماً أن المبتدأ مقصور على هذا الخبر ، وهذا الخبر مقصور عليه دون غيره .

والذى فى آل عمران وقع بعد عشر آيات من قصتها[3] ، وليس كذلك ما فى الزخرف ، فإنه ابتداء كلام منه ، فحسن التأكيد بقوله : ﴿ **هو** ﴾ ، ليصير المبتدأ مقصوراً على الخبر المذكور فى الآية ، وهو إثبات الربوبية ، ونفى الأُبُوَّة ، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً .

٦٠ - قوله : ﴿ **بِأَنَّا مُسْلِمُون** ﴾ «٥٢» فى هذه السورة ، وفى المائدة : ﴿ **بِأَنَّنَا** ﴾ «١١١» ؛ لأن ما فى المائدة أول كلام الحواريين ، فجاء على الأصل ، وما فى هذه السورة تكرار لكلامهم ، فجاز فيه التخفيف ، لأن التخفيف فرع ، والتكرار فرع ، والفرع بالفرع أولى .

٦١ - قوله : ﴿ **الحق مِن رَبك فَلَا تَكُن** ﴾ «٦٠» فى هذه السورة ، وفى البقرة : ﴿ **فَلَا تَكُونَنَّ** ﴾ «١٤٧» ، لأن ما فى هذه السورة جاء على الأصل ولم يكن فيها ما أوجب إدخال نون التأكيد فى الكلمة ، بخلاف سورة البقرة ، فإن فى أول القصة : ﴿ **فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا** ﴾ «١٤٤» بنون التوكيد ، فأوجب الازدواج إدخال النون فى الكلمة ، فيصير

(١) الثلاثة الأخرى هى : ﴿ **أبرئ - أنبئكم - أحيى** ﴾ .

(٢) فى الأصول : وإن الله . خطأ .

(٣) من أول قوله تعالى : ﴿ **وإذ قالت الملائكة يا مريم إن اللّه اصطفاك وطهرك ...** ﴾ الآيات [ ٤٢ - ٥١ ] .

التقدير : فلنولينك قبلة ترضاها ، ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[1] .

والخطاب فى الآيتين للنبى ﷺ ، والمراد به غيره .

٦٢ - قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ «٧٣» فى هذه السورة ، وفى البقرة : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ «١٢٠» ، لأن الهدى فى هذه السورة هو الدين ، وقد تقدم فى قوله : ﴿ لمن تَبِعَ دِينكُم ﴾ «٧٣» ، وهدى الله : الإسلام ، فكأنه قال بعد قولهم : ﴿ ولا تُؤْمِنُواْ إِلَّا لمن تبعَ دينكم ﴾ . قل :﴿ إِنَّ الدِّين عند اللَّه الْإِسْلَام ﴾ كما سبق فى أول السورة .

والذى فى البقرة معناه : القبلة ؛ لأن الآية نزلت فى تحويل القبلة ، وتقديره : قل : إن قبلة الله هى الكعبة .

٦٣ - قوله : ﴿ مَن آمَنَ تبغُونَهَا عِوَجاً ﴾ «٩٩» ليس ههنا ( به ) ولا واو العطف ، وفى الأعراف : ﴿ مَن آمَن بِهِ وَتبغُونَهَا ﴾ «٨٦» بزيادة ( به ) وواو العطف ، لأن القياس : آمن به كما فى الأعراف ، لكنها حذفت فى هذه السورة موافقة لقوله : ﴿ وَمَن كَفَر ﴾ . فإن القياس أيضاً : كفر به ، وقوله : ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ ههنا حال ، والواو لا تزداد مع الفعل إذا وقع حالًا ، نحو قوله : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِر ﴾ «٧٤ - ٦» و ﴿ دَابَّة الأَرْض تَأْكُل منسَأَتَهُ ﴾ «٣٤ : ١٤» وغير ذلك . وفى الأعراف عطف على الحال ، والحال قوله : ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ ، و ﴿ تصدُّون ﴾ عطف عليه ، وكذلك ﴿ تبغُونَها عوجاً ﴾ .

٦٤ - قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّه إِلَّا بُشْرَى لَكُم وَلتَطْمَئنَّ قُلُوبكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِن عِندِ اللَّه الْعَزِيزِ الْحَكِيم ﴾ «١٢٦» . ههنا بإثبات ﴿ لكم ﴾ وتأخير ﴿ به ﴾ . وحذف ﴿ إن اللَّه ﴾ ، وفى الأنفال «١٠» بحذف ﴿ لكم ﴾ وتقديم ﴿ به ﴾ وإثبات ﴿ إن اللَّه ﴾ ؛ لأن البشرى هنا للمخاطبين[1] ، فبين وقال : ﴿ لَكُمْ ﴾ . وفى الأنفال قد تقدم

(١) ما بين الحاصرين سقط من ب .

﴿ لَكُم ﴾ فى قوله : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُم ﴾ «٩» فاكتفى بذلك .

وقدم ﴿ قُلُوبكُم ﴾ هنا ، وأخَّر ﴿ به ﴾ ازدواجاً بين المخاطبين [١] فقال : ﴿ وَمَا جَعَلَه اللَّه إِلَّا بُشْرَى لَكُم وَلتطمَئِن قُلُوبكُم به ﴾ «١٢٦» .

وقدم ﴿ به ﴾ فى الأنفال ازدواجاً بين الغائبين فقال : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّه إِلَّا بُشرَى ولتطمئن قلُوبكم ﴾ «١٠» .

وحذف ﴿ إِنَّ اللَّه ﴾ ههنا ، لأن ما فى الأنفال قصة بدر ، وهى سابقة على ما فى هذه السورة ، فإنها فى قصة أُحد ، وأخبر هناك بأن الله عزيز حكيم ، وجعله فى هذه السورة صفة ، لأن الخبر قد سبق .

٦٥ - قوله : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ «١٣٦» ، بزيادة الواو ؛ لأن الاتصال بما قبلها أكثر من غيرها [٢] ، وتقديره : ونعم أجر العاملين المغفرة والجنات والخلود .

٦٦ - قوله : ﴿ رَسُولًا مِن أَنفُسهم ﴾ «١٦٤» بزيادة الأنفس ، وفى غيرها ﴿ رَسُولًا مِنْكُم ﴾ «٢ : ١٥١» لأنه سبحانه مَنَّ على المؤمنين

---

(١) والمخاطبون فى هذه السورة هم المؤمنون فى قوله تعالى : ﴿ **إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم** ﴾ الآية [ ١٢٤ ] ، وبعدها : ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا** ﴾ [ ١٢٥ ] .

(٢) مراده بغيرها فى سورة العنكبوت : ﴿ **خالدين فيها نعم أجر العاملين** ﴾ [ ٥٨ ] .

ويمكن توضيح كلام الكرمانى : بأن آية آل عمرا ن : ﴿ **أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** ﴾ ، وآية العنكبوت : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ من الجنة غُرُفاً تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين** ﴾ . فآية آل عمران مبنية على تداخل الأخبار ، فأولئك مبتدأ ، وجزاؤهم مبتدأ ثان ، ومغفرة خبر المبتدأ الثانى ، والثانى وخبره خبر الأول والجزاء هو الأجر فكأنه قال : أولئك أجزيهم على أعمالهم : محو ذنوبهم وجنة عدن ودوام نعيمهم ، والخبر إذا جاء بعد خبر فى مثل هذا المكان الذى تفصل فيه المواهب المرغب فيها فحقه أن يعطف على ما قبله بالواو ، فصار المعنى جزاؤهم : ترك المؤاخذة بالذنب ، ودخول الجنة ، والخلود فيها ، وذلك تشريف وكرامة للعاملين .

أما فى العنكبوت فالكلام فيها مدرج على جملة واحدة هى تبوئة المؤمنين غرفاً فى الجنة ، وهى جملة ابتداء وخبر لم يعطف عليها بالواو ، لأن الجملة فى موضع خبر المبتدأ ، كأنه قال : ذلك نعم أجر العاملين ، وتجرى مجرى ما هو من تمام الكلام كقوله تعالى : ﴿ **لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ .

به فجعله من أنفسهم ليكون موجب المنة أظهر ، وكذلك قوله : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ** ﴾ « ٩ : ١٢٨ » لما وصفه بقوله : ﴿ **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ جعله من أنفسهم ليكون موجب الإجابة والإيمان أظهر وأبين .

٦٧ - قوله : ﴿ **جَاءُوا بالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ « ١٨٤ » ههنا بباء واحدة ، إلا فى قراءة ابن عامر[١] ، وفى فاطر : ﴿ **بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ الْكِتَابِ** ﴾ « ٢٥ » بثلاث باءات ، لأنه فى هذه السورة وقع فى كلام مبنى على الاختصار ، وهو إقامة لفظ الماضى فى الشرط مقام لفظ المستقبل ، ولفظ الماضى أخف ، وبنى الفعل للمجهول فلا يحتاج إلى ذكر الفاعل ، وهو قوله : ﴿ **فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ** ﴾ « ١٨٤ » ، لذلك حذفت الباءات ليوافق الأول فى الاختصار ، بخلاف ما فى فاطر ، فإن الشرط فيه بلفظ المستقبل ، والفاعل مذكور مع الفعل ، وهو قوله : ﴿ **وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم** ﴾ « ٢٥ » . ثم ذكر بعدها الباءات ليكون كله على نسق واحد .

٦٨ - قوله : ﴿ **ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّم** ﴾ « ١٩٧ » ههنا ، وفى غيرها : ﴿ **وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّم** ﴾ « ٩ : ٧٣ ، ٩٥ و ٦٦ : ٩ » ، لأن ما قبلها فى هذه السورة : ﴿ **لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فى الْبِلَاد * مَتَاعٌ قَلِيلٌ** ﴾ « ١٩٦ ، ١٩٧ » أى : ( ذلك )[٢] متاع ( فى الدنيا )[٣] قليل ، والقليل يدل على تراخ وإن صغر وقل ، وثم للتراخى فكان طبقاً له — والله ( تعالى )[٤] أعلم — .

---

(١) انظر : ( تفسير القرطبى ٤/٢٩٦ ) ، وقال : بزيادة باء فى الكلمتين ( بالزبر والكتاب ) ، وهو كذلك فى مصاحف أهل الشام .

(٢) سقطت من ب .　　(٣) سقطت من أ .　　(٤) سقطت من ب .

# سورة النساء

٦٩ - قوله فى هذه السورة : ﴿ **وَاللَّه عَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾ «١٢» . ليس غيره ، أى : عليم بالمضارة ، حليم عن المضادة [١] .

٧٠ - قوله : ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ** ﴾ «١٣» ، بالواو . وفى براءة : ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ «٨٩ ، ١٠٠» بغير واو ، لأن الجملة إذا وقعت ( بعد جملة ) [٢] أجنبية لا تحسن إلا بحرف العطف ، وإن كان فى الجملة الثانية ما يعود إلى الأولى حسن إثبات حرف العطف ، وحسن الحذف اكتفاء بالعائد ، ولفظ ﴿ **ذلك** ﴾ فى الآيتين يعود إلى ما قبل الجملة ، فحسن الحذف والإثبات فيهما [٣] ولتخصيص هذه السورة بالواو وجهان لم يكونا فى براءة :

**أحدهما** : موافقة لما قبلها ، وهى جملة مبدوءة بالواو [٤] ، وذلك قوله : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّه** ﴾ «١٣» .

**والثانى** : موافقة لما بعدها ، وهو قوله : ﴿ **وَلَهُ** ﴾ بعد قوله : ﴿ **خالداً فِيهَا** ﴾ [٥] .

وفى براءة ﴿ **أعَدَّ اللَّه** ﴾ [٦] بغير واو ، ولذلك قال : ﴿ **ذلك** ﴾ بغير واو .

٧١ - قوله : ﴿ **مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ** ﴾ «٢٤» ، فى أول

---

(١) ما أورده المؤلف تذييل لآية الميراث عقب الوصية فيها : ﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من اللّه واللّه عليم حليم** ﴾ . يعنى : غير مضار بوصيته أحداً من الورثة . ثم قال والله أعلم بالمضارة ، حليم عند المضادة لأمره ، فلا يؤاخذ على الفور ، رجاء أن يعود الحق إلى أهله .

(٢) سقطت من أ .

(٣) فى ب : فيها .

(٤) فى ب : مبدوءة بواو .

(٥) وذلك فى الآية التى بعد هذه : ﴿ **ومن يعصِ اللّه ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين** ﴾ [ ١٤ ] .

(٦) وذلك فى آية براءة : ﴿ **أعد اللّه لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [ ٨٩ ] .

السورة ، وبعدها : ﴿ **مُحصَنَاتٍ غَير مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ** ﴾ «٢٥» ، وفى المائدة ﴿ **مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِى أَخْدَان** ﴾ «٥» ، لأن فى هذه السورة وقع فى حق الأحرار المسلمين ، فاقتصر على لفظ ﴿ **غير مُسَافحين** ﴾ . والثانية الجوارى . وما فى المائدة فى الكتابيات ، فقال : ﴿ **وَلَا متَّخذى أخدَان** ﴾ ، حرمة للحرائر المسلمات ، لأنهن إلى الصيانة أقرب ، ومن الخيانة أبعد ، ولأنهن لا يتعاطين ما يتعاطاه الإماء والكتابيات من اتخاذ الأخدان .

٧٢ - قوله : ﴿ **فَامسَحُوا بوُجُوهكم وَأَيديكم** ﴾ «٤٣» . فى هذه السورة ، وزاد فى المائدة : ﴿ **مِنهُ** ﴾ «٦» ، لأن المذكور فى هذه بعض أحكام الوضوء والتيمم ، فحسن الحذف ، والمذكور فى المائدة جميع أحكامها ، فحسن الإثبات والبيان .

٧٣ - قوله : ﴿ **إِنَّ اللَّه لَا يَغْفِرُ أَن يُشرك بهِ** ﴾ «٤٨» . ختم الآية مرة بقوله : ﴿ **فَقَد افترَى** ﴾ «٤٨» ، ومرة بقوله : ﴿ **فَقَد ضَل** ﴾ «١١٦» ، لأن الأول نزل فى اليهود ، وهم الذين افتروا على الله ما ليس فى كتابهم ، والثانى نزل فى الكفار ولم يكن لهم كتاب ، فكان ضلالهم أشد [١] .

٧٤ - قوله : ﴿ **يٰأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَاب** ﴾ «٤٧» وفى غيرها : ﴿ **يٰأَهلِ الكِتَاب** ﴾ « ٣ : ٦٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٩٩ و ٥ : ١٩ ، ٥٩ ... إلخ » . لأنه سبحانه استخف بهم فى هذه الآية وبالغ ، ثم ختم بالطمس ورد

---

(١) الآيتان رقم ٤٨ ، ١١٦ من سورة النساء مُكَرَّرتان فيما عدا تذييل كل منهما ، ففى الأولى : ﴿ **فقد افترى إثماً عظيماً** ﴾ ، وفى الثانية : ﴿ **فقد ضل ضلالًا بعيداً** ﴾ . ولا تكرار ، لأن الأولى فى اليهود ، بدليل قوله تعالى قبلها : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة** ﴾ [ ٤٤ ] . ثم قال : ﴿ **يأيها الذين أوتوا الكتاب آمِنُوا بما نزلنا** ﴾ الآية [ ٤٧ ] . ولما كانوا قد عرفوا صِحَّة نبوته وكذبوا ، فقد افتروا إثماً عظيماً . أما الثانية ففى الكفار ، وقد جاء قبلها : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين** ﴾ [ ١١٥ ] . ومن فعل ذلك فقد ضل ضلالًا بعيداً .

الوجوه على الأدبار واللعن ، وبأنها ( كلها )[1] واقعة بهم .

٧٥ - قوله : ﴿ دَرَجَة ﴾ «٩٥» ، ثم فى الآيات الأخرى : ﴿ دَرَجَات ﴾ «٩٦ و ٣ : ١٦٣ و ٤ : ٩٦ و ٦ : ٨٣ و ١٣٢» ، لأن الأولى فى الدنيا ، والثانية فى الجنة . وقيل : الأولى المنزلة ، والثانية المنزل[2] وهو درجات . وقيل : الأولى على القاعدين ( بعذر )[3] ، والثانية على القاعدين بغير عذر .

٧٦ - قوله : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُول ﴾ «١١٥» ، بالإظهار فى هذه السورة ، وكذلك فى الأنفال «١٣» . وفى الحشر بالإدغام[4] «٤» ، لأن الثانى من المثلين إذا تحرك بحركة لازمة وجب إدغام الأول فى الثانى ، ألا ترى أنك تقول : اردد له بالإظهار ؟ ولا يجوز : ارددا ، ارددوا ، أو : ارددى ، لأنها تحركت بحركة لازمة ، والألف واللام فى ﴿ الله ﴾ لازمتان ، فصارت حركة القاف لازمة وليس الألف واللام فى الرسول كذلك . وأما فى الأنفال فلانضمام الرسول إليه فى العطف ، ولم يدغم فيها لأن التقدير فى القافات قد اتصل بهما ، فإن الواو توجب ذلك .

---

(١) سقطت من ب .

(٢) فى ب : الأولى بالمنزلة ، والثانية بالمنزل .    (٣) سقطت من أ .

(٤) الآية فى الحشر / ٤ : ﴿ **ومن يشاقّ اللّه فإن اللّه شديد العقاب** ﴾ ( المراجع ) .

**ملحــق :**

( أ ) ذكر الإسكافى فى التكرار آية لم يذكرها الكرمانى هى قوله تعالى فى النساء : ﴿ **وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن اللّه كان بما تعملون خبيراً** ﴾ [ ١٢٨ ] . وقال بعدها : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ، ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن اللّه كان غفوراً رحيماً** ﴾ [ ١٢٩ ] ، لم قال فى الأولى : ﴿ **وإن تحسنوا وتتقوا** ﴾ ، وفى الثانية : ﴿ **وإن تصلحوا** ﴾ ؟ ولم ختم الثانية بقوله : ﴿ **فإن اللّه كان غفوراً رحيماً** ﴾ ؟

**والجواب عن الأول** : أنه لما كان الكلام عن شُحّ النساء بمهورهن عند خوف الزوجة نفور زوجها ، ورغبتها فى الخلع ، وهذا يقتضى غضب الزوج ، فخوطب بوجوب الإحسان فى القول والمعاملة .

**أما الآية الثانية** : فلما كان العدل بين النساء فى الشهوة والحب غير مستطاع ، اقتضى ذلك الميل إلى إحداهن وترك الأخرى مُعَلَّقة ، فاقتضى الحال حث الأزواج على إصلاح هذا الخطأ ، =

٧٧ - قوله : ﴿ **كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ** ﴾ «١٣٥» ، وفى المائدة : ﴿ **قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ** ﴾ «٨» ، لأن ﴿ **لِلَّهِ** ﴾ **فى هذه السورة متصل ومتعلق بالشهادة بدليل قوله** : ﴿ **وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** ﴾ «١٣٥» ، أى : ولو تشهدون عليهم . وفى المائدة منفصل ومتعلق بقوامين ، والخطاب للولاة بدليل قوله : ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ** ﴾ الآية «٥/٨» .

٧٨ - قوله : ﴿ **إِن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ** ﴾ «١٤٩» فى هذه السورة ، وفى الأحزاب : ﴿ **إِن تُبْدُوا شَيْئاً** ﴾ «٥٤» ، لأن فى هذه السورة وقع الخبر فى مقابلة السوء فى قوله : ﴿ **لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ** ﴾ «١٤٨» . والمقابلة اقتضت أن يكون بإزاء السوء الخير ، وفى الأحزاب وقع بعدها : ﴿ **لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ﴾ «٦٠» . فاقتضى العموم ، وأعم الأسماء شىء ، ثم ختم الآية بقوله : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** ﴾ «٥٤» .

٧٩ - قوله : ﴿ **وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ «١٧٠» .

---

= فقال : ﴿ **وإن تصلحوا وتتقوا** ﴾ . ولذلك اقتضى تذييل الآية بقوله : ﴿ **فإن اللّه كان غفوراً رحيماً** ﴾ . وتذييل الأولى بقوله : ﴿ **فإن اللّه كان بما تعملون خبيراً** ﴾ فهو العالم بحقيقة الإحسان فى المعاملة ، والخبير بما فى الصدور . انظر : ( درة التنزيل : ٨٠ ، ٨١ ) .

(ب) كذلك ذكر الإسكافى قوله تعالى : ﴿ **ولله ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ فقد كررت ثلاث مرات فى سورة النساء ، [ الآيات ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ] . وختمت الأولى بقوله : ﴿ **وكان اللّه بكل شىء محيطاً** ﴾ ، والثانية : ﴿ **وكان اللّه غنيًا حميداً** ﴾ ، والثالثة بقوله : ﴿ **وكفى باللّه وكيلًا** ﴾ . والأولى لم يتبعها ما أتبع الوسطى والأخيرة .

**ولا تكرار** ، لأن الكلام أعيد لأسباب مختلفة ، **فالثانية** : جاءت بعد الإذن للزوجين بالتفرقة لأنه يغنى كلًّا منها من فضله ، لأن له ما فى السموات والأرض ، **والثالثة** : بعد وصية أهل الكتاب بالتقوى لأنه واسع الفضل ، وله ما فى السموات والأرض ، فناسب ختم الآية بقوله : ﴿ **وكان اللّه غنيًا حميداً** ﴾ . ولما وجبت طاعته لأنه ملك السموات والأرض اقتضى ذلك أن يخبر عن كمال كفايته وَحِفْظِهِ للمؤمنين ولا زيادة على كفايته فى حفظ ما هو موكول إلى تدبيره ، فاقتضى الختم بقوله : ﴿ **وكفى باللّه وكيلًا** ﴾ . انظر : ( درة التنزيل ٨٢ - ٨٣ ) .

وسائر ما فى هذه السورة : ﴿ مَا فى السَّمٰوَاتِ وَمَا فى الأَرض ﴾ «١٢٦ ، ١٣١ ، ١٧١» ، لأن الله سبحانه ذكر أهل الأرض فى هذه الآية تبعاً لأهل السموات ، ولم يفردهم بالذكر لانضمام المخاطبين إليهم ، ودخولهم فى زمرتهم ، وهم كفار عبدة أوثان ، وليسوا بمؤمنين ولا من أهل الكتب ، لقوله : ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا ﴾ «١٧٠» وليس هذا قياساً مطرداً ، بل علامة .

٨٠ – قوله : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ «١٧٦» بغير واو ؛ لأن الأول لما اتصل بما بعده وهو قوله : ﴿ فِي النِّسَاء ﴾ «١٢٧» وصله بما قبله بواو العطف والعائد جميعاً ، ( والثانى لما انفصل عما بعده )[١] اقتصر من الاتصال على العائد وهو ضمير المستفتين ، وفى الآية متصل بقوله : ﴿ يُفْتِيكُم ﴾ ، وليس بمتصل بقوله : ﴿ يَسْتَفتُوكَ ﴾ ، لأن ذلك يستدعى : ﴿ قُلِ اللّه يُفْتِيكُم فِي الكَلَالَة ﴾ . والذى يتصل بيستفتونك[٢] محذوف يحتمل أن يكون ﴿ فى الكلالة ﴾[٣] ، ويحتمل أن يكون فيما بدا لهم من الوقائع .

## سُورَةُ المَائِدَة

٨١ – قوله : ﴿ وَاخْشَوْن الْيَوْمَ ﴾[٤] «٣» ، بحذف الياء ، وكذلك : ﴿ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ ﴾[٥] «٤٤» . وفى البقرة وغيرها : ﴿ وَاخْشَونِى ﴾[٦] «١٥٠» بالإثبات ، لأن الإثبات هو الأصل ،

---

(١) ما بين الحاصرين سقط من أ .       (٢) فى أ : والذى يتصل به يستفتونك .

(٣) ما بين الحاصرين سقط من ب .

(٤) الآية : ﴿ فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم ... ﴾ الآية [ المائدة : ٣ ] ( المراجع ) .

(٥) الآية : ﴿ ... فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ... ﴾ الآية [ المائدة : ٤٤ ] ( المراجع ) .

(٦) الآية : ﴿ ... فلا تخشوهم واخشونى ولأُتمَّ نعمتى عليكم ... ﴾ الآية . [ البقرة : ١٥٠ ]

وحذفت الياء من ﴿ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ ﴾ من الخط لما حذفت من اللفظ ، وحذفت من ﴿ وَاخْشَون وَلاَ تَشْتَرواْ ﴾ موافقة لما قبلها[1] .

٨٢ - قوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّه إِنَّ اللَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدور ﴾ «٧» ثم أعاد فقال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّه إِنَّ اللَّه خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ «٨» ، لأن الأول وقع على النية وهى بذات الصدور[2] والثانى على العمل .

وعن ابن كثير : أن الأولى نزلت فى اليهود[3] وليس بتكرار .

٨٣ - قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّه الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَة وَأَجرٌ عَظِيمٌ ﴾ «٩» . وقال فى سورة الفتح : ﴿ وَعَدَ اللَّه الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنهُم مَّغْفِرَةً وَأَجراً عَظِيماً ﴾ «٢٩» . رفع ما فى هذه السورة موافقة لفواصل الآى ، ونصب ما فى الفتح موافقة للفواصل أيضاً ، ولأنه فى الفتح مفعول وعد .

وفى مفعول وعد فى هذه السورة أقوال :

**أحدها** : محذوف دل عليه وعد ، خلاف ما دل عليه أوعد ، أى[4] : خيراً ، وقوله : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَة ﴾ يفسره . وقيل : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَة ﴾ جملة وقعت موقع المفرد ، ومحلها نصب كما قال الشاعر :

وجدنا الصالحين لهم جزاء   وجنات وعيناً سلسبيلا

فعطف[5] جنات على محل : لهم جزاء . وقيل : رفع على الحكاية ، لأن الوعد قول ، وتقديره قال الله : ﴿ لهم مغفرة ﴾ . وقيل : تقديره : إن لهم مغفرة . فحذف إن فارتفع ما بعده .

---

(١) العبارة مضطربة فى ب هكذا : ( وحذف واخشون ولا موافقة قبلها ) وما قبلها هو ما فى الآية (١) .

(٢) فى أ : ذات الصدور . والنية مفهومة من تشريع التيمم فى الآية رقم (٦) من سورة الأنعام ، وهى قبل هذه .

(٣) انظر : ( تفسير ابن كثير ٥٧/٢ ) طبعة الشعب . رواه على بن طلحة عن ابن عباس . وبه قال السدى ، واختاره ابن جرير . وانظر : ( جامع البيان الطبرى ٩٣/١٠ ) .

(٤) سقطت من ب .   (٥) فى ب : وعطف .